مشاهير العرب

٢

مُوسَى بْنُ نُصَيْر

(فاتح الأنْدَلسْ)

بقلم

محمد عبد الغِنى حسن

دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر

المولد والنشأة

١

فى السنة التاسعة عشرة من هجرة النبي عليه السلام ، وفى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الخليفة الثانى من الخلفاء الأربعة الراشدين ، شهدت بلاد العرب مولد طفل كان القدر يُعده ليفتح للإسلام أرضاً جديدة فى الشاطئ الأوربى ، بعد أن أكمل الله للمسلمين دينهم ، وأتم عليهم نعمته فى الجزيرة فاتجهوا إلى عرش كسرى فى بلاد الفرس ، وقيصر فى بلاد الروم .

ولما كان العرب فى أول أمرهم أمة أمية لا تعتنى بالكتابة ، ولم تعتن بالتدوين والتصنيف إلا بعد قرن من الزمان أو أكثر من نشأة الإسلام ، فإننا نصادف فى تواريخ رجال الأمة العربية الإسلامية بعض اختلاف فى الرواية ، وليس مرجع ذلك إلى عدم الصدق أو البعد عن تحرى الحق ، فإن العرب كانوا أحرص الناس على حفظ أيامهم ووقائعهم وأخبارهم وأنسابهم ، ولكن ذلك يرجع إلى أن رواية الأخبار عن طريق المشافهة تُعرِّضها دائماً للتزيد فى الخبر ، أو التكثر فيه ، أو النقص منه ، كما

نشاهده الآن دائماً فى الأخبار التى تروى لنا والتى تقع فى العصر الذى نعيش فيه ، فإنها تختلف باختلاف الرواة ، وبطبيعتهم فى النقل والوصف ، وباستعدادهم للمبالغة ، وبعوامل أخرى كثيرة تؤثر فى حقيقة الأخبار ، وتوسّع شقة الخلاف بينها .

فليس عجيباً إذا رأينا أن الروايات تختلف فى مولد رجل من أعظم أبطال المسلمين مثل موسى بن نصير ، كما تختلف فى أسرته وفى نسبته .

وأغلب تواريخ النشأة الأولى لزعماء الإسلام وقواده وأبطاله فى القرن الأول من الهجرة فيها هذه الخلافات التى يجب أن لا ننزعج لها ، أو نظن سوءاً بها ، بل يجب أن نقبلها على أنها تكوّن فى مجموعها مصدراً من مصادر حياة هؤلاء الرجال ، على شرط أن نوازن بينها حتى نعرف صحيحها من فاسدها ، وصادقها من كاذبها .

وهناك أمر آخر يجب أن نلتفت إليه ونحن نكتب تاريخ رجالنا أو نقرأ عنهم ، فإنهم حين يولدون يكونون قوماً عاديين لا شأن لهم ، ولا تلتفت الدنيا إليهم ، ولا تنطق الأفواه بأسمائهم . ومن هنا لا يهتم الناس بأخبارهم ، ولا بالسنوات الأولى من حياتهم المغمورة ، فإذا ما بدأ نجمهم يظهر ، وإذا ما بدأت أعمالهم العظيمة تنم عليهم وتتحدث عنهم ، أخذ الناس يهتمون بهم وبأخبارهم . وهنا نجد أنفسنا أمام مرحلتين من مراحل تاريخ العظماء :
المراحل الأولى من حياتهم ، وأخبارها فى الغالب غير كافية ولا شافية

والمراحل التى تلى ظهورهم واشتهار أمرهم ، وأخبارها دائماً موضع الاهتمام بها ، والتعليق عليها ، والتقييد لها حتى لا تضيع . . .

وهذا شأننا اليوم مع الفاتح العظيم « موسى بن نصير » .

فمن المؤرخين من يقول إنه ينتسب إلى قبيلة من أكبر القبائل العربية هى قبيلة بكر بن وائل ، ومنهم من يقول إنه ينتسب إلى قبيلة لخم ، فهو إذن لخمى ، كما يقال للرجل من قبيلة مضر : مضرى .

وذهب بعض المؤرخين إلى أبعد من هذا فقالوا إنه لم يكن عربياً صريح النسب ، وإنما كان مولى من هؤلاء الموالى غير العرب الذين وقعوا فى أسر المسلمين الفاتحين ، فانتسبوا إلى القبائل العربية بطريق « الولاء » . ولكى يؤكدوا هذا القول قالوا إن أباه اسمه نُصير ، وأنه كان من السبايا الذين أسرهم خالد بن الوليد رضى الله عنه فى موقعة « عين التمر » الحصينة المنيعة فى الشمال الغربى من الكوفة ، حين قاتل خالد بن الوليد العراق ومعه خمسمائة جندى فقط من أشد شجعان المسلمين الذين أبلَوا فى حروب المرتدين عن الإسلام بلاء شديداً . .

ولا يهمنا أن نلتفت هنا إلى رواية أخرى بعيدة فى الغرابة تقول إن موسى بن نصير ليس عربياً ولا مشرقياً ، وأنه من أهل البربر الذين يسكنون شمالى أفريقية ، وهم أولئك القوم البدو الذين يتفقون مع عرب الجزيرة العربية فى كثير من الأخلاق والصفات التى أهمها الشجاعة ، والمروءة

والنخوة ، وكرم الضيافة ، ورعاية الجار ، وحماية الذمار . .

الحق أن اختلاف هذه الأقوال فى نسب ذلك القائد الفاتح المسلم لا يغير شيئاً من الحقائق التى عرفت عنه بعد ذلك . . .

فقد كان والده « نصير » أحد القادة الذين استعملهم معاوية بن أبى سفيان فى الجيش الأموى ، وكان مقرباً إليه ، مكين المنزلة عنده ، ولكنه لم يكن ممن يرون توسيع شقة الخلاف بين الإمام على ومعاوية ، حقناً لدماء المسلمين ، وصونا لوحدتهم أن تتصدع ، وهنا نرى رجال معاوية يتسابقون إلى الخروج معه ، ونرى « نصير » أبا موسى يقعد عن الخروج فيدعوه معاوية ويقول له :

— يا أبا موسى ! ما يمنعك من الخروج معى للقتال ، ولى عندك يد لم تكافئنى عليها ، ولم تجزنى بها ؟

وهنا لا تفقد الشجاعة ولا الصراحة فى القول ذلك الرجل الذى قد يعرض حياته للخطر الشديد بهذه المخالفة ، فيرد قائلا :

— لم يمكنى أن أشكر نعمتك بكفرى بمن هو أولى منك بشكرى !

فيقول له معاوية :

— ومن هو ؟

فيجيب نصير فى إيجاز حكيم :

— هو الله عز وجل . .

وهنا لا يستطيع معاوية أن يفعل شيئاً أو يقول شيئاً مع هذا الجواب الشجاع المملوء بالإيمان الكبير ، فيطرق برأسه مليًّا ، ثم يرفع رأسه وهو يقول : أستغفر الله ! أستغفر الله !

لقد أجاب « نصير » بهذا الجواب الذى قد يغضب معاوية غضباً شديدا ، لأنه كان واثقاً بخطأ مقاتلة الإمام على ، ولأنه كان من أولئك القوم الصرحاء الذين لا يخشون أن يصيبهم السوء فى كلمة حق يقولونها ، ولأنه كان مطمئنًّا إلى حلم معاوية وسعة صدره . أليس هو الخليفة الذى قال فيه الشاعر :

نميل على جوانبه كأنا نميل إذا نميل على أبينا

والحق أن معاوية كان عند حسن ظن الرجل به . . فلم يغضب ، ولم يثر ، ولم يفقد حلمه ، ولكنه استغفر الله ، ثم رضى عن « نصير » . . .

* * *

وهبْ موسى بن نصير عربيًّا صريح النسب أو عربيًّا بالولاء ، فإن صلة أبيه وصلته هو بعبد العزيز بن مروان كانت شديدة إلى أبعد الحدود . فلقد تربى موسى فى بيت عبد العزيز ، وكان له عليه دالة ، فقد تجهز مع « أم البنين » بنت عبد العزيز بن مروان حين زفت إلى الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى ، فكانت هى من ناحيتها تشد أزره ، وتقرب مكانته عند زوجها الخليفة الوليد بن عبد الملك ، حتى بلغ عنده مبلغاً وصل به

إلى أن عقد له بالولاية على أفريقية – أى غربى مصر الشمالية وما خلفها – سنة ثمان وثمانين من الهجرة .

وكانت هذه الولاية على أفريقية هى السبيل الذى دخل منه موسى ابن نصير إلى بلاد الأندلس بعد أن بعث مولاه طارق بن زياد ، فارتفعت راية الإسلام فى تلك الأرض الأوربية الجميلة ، وظلّ هذا الفردوس الإسلامى هناك بضعة قرون ، إلى أن غربت شمسه وطواها المغيب . . .

موسى بن نصير فى أفريقية

٢

كانت صلة موسى بن نصير بعبد العزيز بن مروان أول طريقه إلى المجد الذى كان ينتظره ، فلقد كان ذا حظوة فى عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان أخى عبد العزيز ، كما كان ذا حظوة فى عهد الوليد بن عبد الملك، الذى ولى الخلافة بعد أبيه سنة ٨٦هجرية ، والذى كان زوجاً لابنة مولاه عبد العزيز بن مروان . فهو على الحالين يمت إلى الخليفة القائم بأقوى الأسباب .

ففى عهد الخليفة عبد الملك عين موسى بن نصير ليتولى جمع الخراج من البصرة ، وكان مالها كثيراً فيما سبق من أعوام ، إلا أن المال قلّ فى عهد موسى

فاتّهمه خصومه بأنه احتجز الأموال لنفسه ، وأنه لم يؤد إلى الخليفة ما وجب فى ذمته من مال الخراج. وأحسّ ابن نصير أن يد الحجاج الباطشة القوية تبحث عنه لتقبض عليه ، فخرج من البصرة خائفاً يترقب صولة الحجاج الذى لم يصُل أحد من ولاة المسلمين صولته . . . وقصد إلى ملجأ يحميه ، وكنف يلجأ إليه ، ويجد فى ظله الأمن والعافية ، ولم يكن هذا الملجأ غير مولاه عبد العزيز بن مروان – أخى الخليفة عبد الملك – الذى كان صاحب مصر وعاملا عليها من قبل الخليفة .

ولم يخذل عبد العزيز رجلا من أتباعه كان يطمئن إليه ويثق به ، ويبسط عليه ظل حمايته ورعايته ، فركب معه من مصر ، وتوجه معه إلى دمشق حيث كان يقيم الخليفة عبد الملك فى دار الخلافة الأموية . فسأله قائلا :

– ما بقى إلا أنتم يا موالى بكر حتى تَغُلُّوا من أموال الخراج ما يصل إلى أيديكم ؟ .

– ولكننى يا أمير المؤمنين لم يصل إلى يدى شىء غير ما بعثته إلى دار الخلافة .

– ولكن الخراج فى عامك هذا يا موسى قد نقص مائة ألف دينار عما كان عليه قبلا ، فهى إذاً فى ذمتك .

– ولكن كيف أحاسب – يا مولاى – عما لم يجتمع منه فى يدى شىء ؟

وطال الأخذ والرد بين موسى والخليفة الذى أصر على أن يدفع ابن نصير الغرم كله ، فلم يكن من عبد العزيز إلا أن تعهد لأخيه بأن يحتمل نصف الغرم عن عبد العزيز ، ودفعها راضيا ، وعاد بموسى إلى مصر حيث كان يُعده لأمر آخر غير جباية الخراج . . .

كان عبد العزيز بن مروان – وهو والد الخليفة الأموى الصالح العادل عمر بن عبد العزيز الذى كان أشبه الخلفاء بعمر بن الخطاب – والياً على مصر أو صاحب مُلكها من قِبل أخيه الخليفة عبد الملك ، وكان رجلا تقيًّا متديناً كريماً واسع العطاء، حتى ازدحم الشعراء ببابه يمدحونه، وكان يعطف على موسى بن نصير ويرجوه لأمر كبير للإسلام والمسلمين، فعينه – من ناحيته – عاملا على شمالى أفريقية ليخمد فتن البربر، ولينشر الإسلام بينهم ، وخاصة بعد حوادث « الملكة الكاهنة » التى كانت تقطن بجبل أوراس ، والتى كان يخافها الروم ، ويطيعها البربر ، حتى دوخت القائد الفاتح حسان بن النعمان البكرى الذى كان قد عينه الخليفة عبد الملك والياً على أفريقية .

وحديث هذه الكاهنة الملكة الأفريقية فيه شىء من الغرابة التى توجب علينا أن نقف عنده قليلا ، قبل أن ندخل فى حديث موسى ابن نصير وأخباره فى بلاد البربر . فهى امرأة مقاتلة من طراز نادر فى التاريخ ، التقت مع العرب المسلمين فى ليلة قضى الفرسان فيها الليل

كله على سروج الخيل ، لم تغمض لهم عين . . وقتلت فى المسلمين قتلا ذريعا ، وكانت تجمع الجيوش بعد الجيوش كأنها تجمع من خلائق لا عدد لها ، حتى اضطر حسان بن النعمان أن يكتب إلى الخليفة عبد الملك قائلا : « إن أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية . . . »

وشر ما كان فى هذه الكاهنة المحاربة هو الدهاء والدمار ، فقد جمعت رجالها من البربر قائلة لهم :

إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدن ، ويلتمسون الذهب والفضة ، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى ! والرأى عندى أن نخرب بأيدينا بلاد أفريقية كلها ، حتى ييأس منها العرب ، فلا يكون منهم رجوع إليها إلى آخر الدهر . . . . !

أما دهاؤها فيظهر فى الحادثة التالية : فقد أسرت ثمانين رجلا من أشداء رجال المسلمين فى جيش حسان بن النعمان ، وأحسنت إليهم فى الأسر ثم ردتهم مكرمين إلى معسكر العرب ، واستبقت عندها واحداً فقط من هؤلاء الرجال هو « خالد بن يزيد » ، وأخذت تتودد إليه وتلاطفه ليدلها على عورات المسلمين ، ولكن هيهات للعربى المؤمن أن يُشترى بمال أو بما هو أغلى من المال ! لقد استحال هو ليكون عيناً للمسلمين على الكاهنة وعلى جيشها من البربر ، فقد جاءه رسول متنكر

يثق به حسان كل الثقة ويحمل معه كتاباً منه ، واحتال الرسول حتى وصل إلى خالد وأوصل إليه الكتاب ، فقرأه خالد ، وكتب فى ظهره العبارة التالية ، يستحث بها حسان بن النعمان على مواصلة القتال حتى يتم الله أمره ، وينصر جنده : « إن البربر قوم متفرقون ، مفككون ، لا نظام لهم ، ولا رأى عندهم ، فاطو المراحل ، وجدّ فى السير .. »

ولكن إذا كان الرسول قد دخل بالكتاب سالماً إلى خالد ، فكيف يخرج من عنده برد الجواب ، والعيون قد تكون مبثوثة له بالمرصاد ؟ لقد احتال خالد فجعل الكتاب مطوياً فى خبزة ووضعها فى رحل الرجل كأنها بعض زاده على الطريق ، ووجهه إلى الأمير حسان بن النعمان .

ولم يفارق الرسول مكان خالد بمدى يسير ، حتى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها كأنها بعض بنات الجن ، وهى تضرب صدرها بيديها وتقول فى صراخ شديد :

— « ويلكم ؟ يا معشر البربر ! لقد ذهب ملككم فيما يتزود الناس به من الطعام ! » وتقصد بذلك تلك الرسالة التى دسها خالد فى لباب الرغيف الساخن .

وأخذ الناس يهبون فى كل طريق ، ويتشعبون فى كل مسلك ، لعلهم يقبضون على الرسول الذى يحمل رسالة فنائهم ، وكتاب مقاتلتهم ، ولكن الله ستره ، حتى بلغ حسان ، وقد بلغ السرور منه كل مبلغ لأنه أوصل

الرسالة ، ولكن آه لو علمنا على أية حال وصل هذا الكتاب ؟ !

لقد كسر حسان الخبزة ، فوجد الورقة فى طيها ، ولكنه لم يجد الكتابة عليها ، لأن حرارة الرغيف الساخن قد أفسدتها ! ومحت معالمها ! وعبثاً حاول حسان أن يبعث الرسول ثانية ليأتيه بالجواب من جديد ، فقد أصر الرسول على الرفض قائلا :

لا يامولاى ! إن المرأة ساحرة ماكرة ، وكاهنة عرافة ، ولا يخفى عليها شىء من تدبيرنا . . . ! ولن أعرض نفسى لسحرها مرة ثانية !

فى بلاد البربر
٣

كانت أعمال موسى بن نصير فى بلاد البربر بشمالى أفريقية سلسلة من الشجاعة العربية والبطولة الإسلامية المنقطعة النظير . وكان له فى كل محلة ينزل بها ظفر لا مثيل له ، حتى ولو كان فى قلة من رجاله المؤمنين بربهم ، المتشوقين إلى نشر دينهم ، ولو ظفروا فى سبيل ذلك بالاستشهاد فى سبيل الله . وماذا تكون الشهادة فى سبيل الله فى نظر أولئك الذين تجردوا من شهوات الدنيا ومطامع المادة ، لنشر كلمة الله عالية فى الأرجاء ؟

فتوجه إلى ناحية زغوان وما حواليها من بلاد وقرى ، وكان بينها وبين مدينة القيروان مسيرة يوم كامل على ظهور الإبل، وكانت حصناً حصيناً للبربر يجتمعون فيه ويشنون الغارات منه ؛ فبعث إليهم موسى خمسمائة فارس من أشد رجاله بأساً ، وأقواهم قلباً ، وأصبرهم على القتال ، وما هى إلا ساعات حرجة ، ولحظات شديدة البأس حتى فتحها الله عليهم ، واستسلم أهلها ، ووقع منهم فى يد العرب الفاتحين عشرة آلاف من السبايا . فكان ذلك أول سبى دخل مدينة القيروان منذ أن تولى أفريقية موسى بن نصير .

وأخذ ابن نصير يوجه البعوث والسرايا من مدينة القيروان التى اتخذها قاعدة حربية له ، ومركزاً للإمداد والتموين والتعبئة كما نقول اليوم . وكان ابن نصير رجلا بارك الله له فى الولد ، وأكثر له منهم فى العدد ، فكان يجعلهم دائماً على طلائع بعوثه ، وثوقاً منه بهم ، واطمئناناً منه إليهم . وكان فى هؤلاء الأولاد دائماً أسرار من أبيهم ، لأن الولد — كما يقول المثل العربى — سر أبيه . فوجه أحدهم المسمى عبد الله إلى بعض النواحى بأفريقية ، يقاتل أهلها على الإسلام ، ويدعوهم إلى دين الله ، فكانت الكثرة الكاثرة منهم تنخذل أمام القلة المؤمنة المسلمة ، حتى لقد أتاه ولده عبد الله هذا بمائة ألف رأس من السبى ، وأتاه ولده مروان بمائة ألف مثلها . . .

وبلغت الغنائم حداً لا عهد للعرب الفاتحين بمثله ، ولم يكن ذلك على سبيل المبالغة فى الوصف ، أو التكثر فى العدد ، فقد قال أكثر المؤرخين إن سبايا موسى بن نصير لم يسمع بمثلها فى الإسلام !

وبلغت كثرة السبايا والغنائم حداً جعلت عبد العزيز بن مروان نفسه صاحب مصر وأفريقية من قبل الخليفة الأموى يشك فى صحة الأعداد ، وكثرة التعداد ! وأنتم تعلمون حكم الإسلام فى تقسيم الغنائم ، فالله تعالى يقول فى سورة الأنفال : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خُمسه ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان . والله على كل شىء قدير) فلا بد أن يرسل الخمس إلى الوالى لتوزيعه على مصارفه كما أمر الله . ولما بدأ ابن نصير يعد الغنائم ليخرج نصيب الله منها كان مقدار الخمس يومئذ ستين ألفاً .

وأخذ ابن نصير يكتب إلى عبد العزيز بن مروان يبشره بالفتح المبين الذى فتحه الله عليهم ، ويعلمه بمقدار الخمس من الغنائم وهو ستون ألفاً ، ولكن كاتب الرسالة وهم فى العدد ، وأخطأ فى كتابته ، فجعله ثلاثين ألفاً بدلا من ستين . ووصل الكتاب إلى عبد العزيز بن مروان فى مقامه بمصر التى اتخذها داراً للولاية ، فلما قرأ أن عدد الخمس ثلاثون ألفاً استكثره ، وظن أن فى العدد وهماً وخطأ من الكاتب ، لأنه كان

أكثر بكثير مما كان يتصوره ! فاستدعى كاتباً له وأملاه الرسالة الآتية إلى موسى بن نصير :

« إنه قد بلغنى كتابك ، تذكر أن خمس ما أفاء الله عليك ثلاثون ألف رأس ، فاستكثرت ذلك ، وظننته وهماً من الكاتب ، فاكتب بالحقيقة ! ! » وحمل البريد رسالة عبد العزيز إلى ابن نصير يطوى بها السهول والأباطح ، ويخترق بها الجبال والأودية ، حتى بلغ مكان القائد موسى بن نصير وسلمه الرسالة ، وفضها ابن نصير وقرأها ، وعلم أن عبد العزيز يستكثر ثلاثين ألفاً ، فما باله لو علم أن العدد الحقيقى الذى أخطأ فيه الكاتب هو ستون ألفاً ؟

وهنا أملى موسى على كاتبه الرسالة الآتية : « قد كان ذلك وهماً من الكاتب على ما ظنه الأمير ! وحقيقة عدد الخمس أيها الأمير ستون ألف رأس ثابتاً ، بلا وهم ! »

وحمل الرسول كتاب موسى عائداً به إلى ابن مروان ، فلما فضه وعلم أن حقيقة العدد ستون ألفاً لا ثلاثون ، بلغ منه السرور مبلغاً عظيما على ما أنعم الله به على المسلمين من غنائم ، ولكن سروره على كل حال لم يذهب شدة اندهاشه وعظيم تعجبه لهذا العدد الهائل الذى كان يستكثر نصفه أول الأمر !.

كانت هذه الحادثة سبباً فى ارتفاع مكانة ابن نصير عند مولاه

عبد العزيز بن مروان من ناحية ، وعند الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان من ناحية أخرى ، وقد استغلها عبد العزيز بن مروان ليسوغ بها موقفه من عزل القائد حسان بن النعمان وتولية موسى بن نصير مكانه . فقد كان عبد العزيز كتب إلى أخيه الخليفة عبد الملك يطلب منه موافقته على خلع حسان وتولية موسى على شمال أفريقية ، فجاء الكتاب من الخليفة عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز يقول فيه : « قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من رأيك فى عزل حسان ، وتولية موسى ، وقد أمضى لك أمير المؤمنين ما كان من رأيك ، وولاية من وليت . . » فلما اتسع الفتح وزادت الغنائم على يد موسى كتب عبد العزيز إلى أخيه الخليفة يعلمه بذلك ، ويزف إليه البشرى بهذه الفتوح العظيمة ، بل أبلغه نص كتاب موسى إليه . . .

وهنا أيقن الخليفة عبد الملك أن أخاه عبد العزيز بن مروان صاحب مصر وأفريقية يعرف تمام المعرفة كيف يصطنع الرجال ، ويكتشف الأبطال ! واتخذ الخليفة الوسائل التى يحصل بها على نصيب الخلافة من الغنائم ، فوجه من دمشق بعض رجاله وأتباعه ووكل إليهم أن يقبضوا الخمس من موسى بن نصير على ما ذكره فى كتابه . فدفع موسى ذلك للرسل الموكلين بتسلم الفىء ، وزادهم ألفاً من الرءوس على سبيل الهدية إليهم...

* * *

استمر موسى بن نصير يواصل فتوحه وغزواته ببلاد البربر ، وكان أمامه قوتان تقاتلانه فى شمالى أفريقية : البربر ممن لم يدخلوا فى الإسلام ولم يدينوا بالطاعة ،وهم قوم أشداء فى الحروب ، صابرون فى المواقع . والروم وهم قوم كان لهم فى بلاد البربر شأن كبير قبل الإسلام ، وكثيراً ما خرجوا فى المواكب الكثيرة، والقوة العظيمة للقاء العرب الفاتحين ، حتى لقد قتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً من التابعين ورؤساء العرب المجاهدين، يوم أن التقوا معهم فى برقة لقاء عنيفاً قبل ولاية حسان بن النعمان، واستشهد زهير بن قيس فى المعركة ، وهو قائد عربى شجاع ، فكانت مصيبة الخليفة عبد الملك فيه لا تقل عن مصيبة المسلمين فى القائد الفاتح عقبة بن نافع من قبله سنة ٦٣ هـ ، حينما أطبق عليه الروم فى جماعة قليلة من عسكره فقتلوه . . .

ولم تصادف موسى بن نصير فى طريقه عقبة إلا أزاحها من سبيله وتغلب عليها ، وكان يستبشر بما يقع أمامه من الطوالع التى تدل على حسن حظه ، وصعود نجمه ، فقد ذكروا أنه فى المواقع الأولى له فى أرض البربر نزل مع رجاله يستريحون فى بعض الطريق بعد أن أضناهم طول المسير ،وعناء الرحيل ،وحرارة اللقاء مع الأعداء . وبينما هم يتنسمون نسمة منعشة للنفس فى حرارة الصحراء إذا بعصفور صغير قد حملته الريح وقذفت به على صدره ، وهو يضطرب بجناحيه ويخفق بهما فوق

قلب الرجل الجرىء ، فأخذه موسى وذبحه كما أحل الله للطير أن تُذبح ، ولطخ بدمه ثيابه من فوق صدره ، ثم نتف ريشه وطرحه على نفسه ، وقال : هو الفتح ! هو الفتح ورب الكعبة . . . !

وكأن ذلك كان إيذاناً بما تلاه من الفتوح العظام . فمضى إلى ولاية « سجومة » وقتل ملوكها ، وأعمل السيف فى أمرائها ، وآن لأبناء « عقبة ابن نافع » أن يأخذوا حقهم من قاتل أبيهم ، فقتلوا من أهل هذه البلاد ستمائة رجل من كبار رجالهم وأهل الرأى فيهم ، ولم يغمدوا السيوف فى الرقاب إلا بعد أن أمرهم موسى بأن يكفوا عن القتال ، فكفوا . . .

ومضى موسى بن نصير إلى بلاد هوارة ، وزناتة ، وكتامة من أرض البربر فأغار عليهم ، وقتل منهم ، وأخذ سبياً من رجالهم بلغت عدته خمسة آلاف رأس ، وكان فيهم « طامون البربرى » وهو رجل عنيد لم يشرح الله صدره للإسلام فاستمر فى عناده ، وظل على المخالفة حتى وقع أسيراً فى يد العرب ، فبعث به موسى إلى عبد العزيز بن مروان فى مصر ،ولكنه قتل فى الطريق عند بركة من الماء قريبة من قرية « عقبة » ، وظلت هذه البركة تحمل اسم «طامون» إلى ما بعد الفتح العربى للمغرب ببضعة قرون .

وأصبح موسى صاحب سلطان فى أفريقية ، تهابه البربر ، وتخشاه الروم ، ولم تجد «كتامة » بداً من الاعتراف له بالطاعة فقدمت عليه

فى جمع من شيوخها ورؤسائها يعلنون الخضوع له ، ويقرون بالسلطان عليهم ، فولى عليهم رجلا منهم ، وأخذ رهائن من خيار قومهم وأشراف رجالهم .

وظل موسى ممعناً فى الفتوح والغارات لا يصده هول ، ولا تقف فى طريقه عقبة ، ولا تثنيه جموع البربر والروم مهما كثر عددها ، وإذا بالأنباء تأتى من المشرق بوفاة الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ ﻫ وتولى ابنه الوليد بن عبد الملك الخلافة من بعده .

وهنا بدأ نجم ابن نصير يلمع من جديد ، فهو ليس غريباً على الوليد ولا بعيداً من عنايته ، وإذا كان حاميه ونصيره عبد العزيز بن مروان قد أدركته المنية قبل ذلك بعام واحد – أى سنة ٨٥ ﻫ – فإنه سيجد عند ابنته « أم البنين » زوج الخليفة الجديد حامياً له ونصيراً ، ألم يتجهز مع أم البنين هذه حين زفت إلى الوليد بن عبد الملك ؟ ثم أليست هذه وقد صارت امرأة الخليفة أولى الناس برعاية موسى بن نصير ، حفاظاً منها على قديم رعاية أبيها له ، وجميل عوارفه عنده ؟

لقد كتب الوليد بن عبد الملك عهداً بأن يتولى موسى بن نصير أفريقية والمغرب ، بدلا من عمه عبد الله بن مروان الذى قطعت الولاية عنه ، وهكذا انتقلت الولاية على هذه البلاد الشاسعة ، والممالك الواسعة إلى موسى بن نصير .

وهنا زادت الأقدار عبئاً جديداً على العبء الذى كان على كاهل موسى بن نصير ، وألقت عليه حملا ثقيلا بإضافة بلاد المغرب إلى ولايته فوق ولايته على أفريقية . لقد كانت أفريقية تبتدئ من برقة وتنتهى إلى حدود مدينة القيروان ، أما بلاد المغرب فتبدأ من القيروان وتغرب فى مساحات شاسعة من الأرض لتنتهى إلى أقصى المحيط ، حيث تلتقى رمال الصحراء مع غمرات الماء . . .

وتقدم موسى بزحفه نحو الغرب ، ولم يجد أمامه حين خرج من أفريقية جيشاً يقاومه ، ولا عدواً يناهضه . لقد كان البربر تركوا البلاد تنعى من بناها وفروا إلى الغرب خوفاً من لقاء العرب ، وكأنهم رضوا أن تدمى كلومهم على الأعقاب . وأن يطعنوا من الخلف لا من الأمام ! فسار موسى بجيوشه خلفهم ، وأخذ يقتل فيهم قتلا ذريعاً ، ويسبى منهم خلقاً كثيراً . .

ورأى البربر أن لا مفر من الهزيمة لهم ووقوع الدائرة عليهم ، وأنهم أمام عدو لا طاقة لهم بقتاله ، ولا صبر لهم على نزاله ، فطلبوا الأمان من موسى ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وولى عليهم والياً . ومضى فى الفتح إلى الغاية حتى بلغ ثغر طنجة فى أقصى بلاد المغرب ، على المضيق المعروف إلى اليوم بمضيق جبل طارق . ولما استوثق موسى لنفسه من هذا الفتح العظيم والغزو الكاسح أراد أن لا يبعد فى هذه الأرض لو كان

وراءها غاية للإبعاد ! فعزم على العودة ثانية إلى مقره بأفريقية وترك أحد مواليه المسمى طارق بن زياد والياً على أرض طنجة وما والاها من البلاد .

وحين نسمع هنا اسم طارق لأول مرة فإننا سنلقاه بعد ذلك مرات ومرات ، لأنه هو القائد المسلم الذى حمل أول ثمرات الفتح الإسلامى للأندلس حين وجهه موسى بن نصير ليحمل راية الإسلام فى تلك البلاد . . .

ولم يترك موسى بلاد المغرب كلها عائداً إلى أفريقية من غير أن يضع فيها الأساس لتعاليم الإسلام ، إنه لم يكن رجلا مغامراً ولا ناهباً ولا جماعاً للأسلاب . إنه كان من أولئك التابعين الذى اتبعوا صحابة الرسول بإحسان . . إنه كان داعياً إلى دين الله فى بلاد استقرت فيها عبادة الأوثان ، وحكم الكاهنات والكهان .

ولهذا ترك عند البربر فى بلاد المغرب بضعة عشر ألفاً من العرب ، يعلمونهم القرآن ، ويؤدبونهم بآداب الإسلام ، ويفقهونهم بالدين والأحكام .

عاد موسى بن نصير إلى أفريقية لا ليهدأ ، ولكن ليضع أسس الإدارة الإسلامية على أساس صحيح . إنه هنا يقيم دولة جديدة خرجت من الظلام إلى نور الإسلام ، إن جيشه قد كثر عدد رجاله بمن انضم إليهم من البربر الذين دخلوا فى الدين الجديد ، وهم محتاجون إلى الأعطيات والمرتبات.

وهنا بدأ ابن نصير يسك عملة من النحاس والبرنز ، ضربها فى أفريقية

ليوزع منها عطاء الجنود ، بدلا من تلك النقود والعملة الرومية التى كان يستعملها الولاة قبله ، وبهذا حل مشكلة العملة المحلية على أسهل الوجوه ، وأتاح للعرب الفاتحين صناعة جديدة بضرب نقودهم بأيديهم ، تحمل على وجهها اسم الله العلى الكبير واسم نبيه محمد عليه السلام ، بدلا من تلك العملات القديمة التى كانت تحمل وجوه الرومان ، وأسماء الرومان . .

واتجهت آمال ابن نصير إلى البحر المتوسط الذى كان يسمى بحر العرب أو بحر الروم . إن مطامحه لا تقف عند حد الأرض ، ولكنها تمتد إلى ما وراء الأمواج ، ، وهنا أرسل حملة بحرية إلى جزيرة ميورقة ، وهى إلى الشرق من بلاد الأندلس ، وجعل ابنه محمد عبد الله قائداً لهذه الحملة ، فغنموا من هذه الجزيرة غنائم لا تحصى ، وعادوا منها سالمين . ولاشك أن هذه الحملات البحرية كانت بمثابة جس النبض لغرض آخر كبير . . .

وتأبى الشدائد دائماً إلا أن تلم بالرجل العظيم ، لتمتحن صبره ، وتختبر قدرته على الثبات والإيمان والاطمئنان ، لقد كان أكثر مدن أفريقية خراباً من كثرة ما توالى عليهامن الغارات ، واختلف عليها من الحروب . وأصيبت البلاد بقحط شديد ، كما أصيبت بما يتبع القحط دائماً من غلاء فاحش ، وتكالب على الزاد ، وتهافت على الأرزاق ، وهلع فى النفوس . وكان هذا الامتحان عسيراً على موسى بن نصير ، فماذا يصنع والأقوات نادرة ، والأرزاق شحيحة أو معدومة ، والقلوب فى جزع شديد ؟ إنه هو

وقومه ورعيته المسئول عنها أمام الله ، لا أمل لهم إلا فى الاتجاه الذى يفرج الكروب ، ويزيح الخطوب .

لقد أمر القائد الناس بالصوم والصلاة والدعاء إلى الله ، ونسيان ما بينهم من أحقاد النفوس ، وإصلاح ذات بينهم حتى تتطهر قلوبهم بالطاعة ، وتصقل بالمحبة ، وترق بالصفاء ، وحينئذ يجاب منهم الدعاء .

وخرج موسى بالناس جميعاً إلى الصحراء لصلاة الاستسقاء ، وبينهم الشيوخ والشباب ، والآباء والأمهات ، والولائد والأطفال ، حتى الدواب والماشية والدواجن . . . وفرّق بين الأمهات والأبناء من الناس والحيوان ، فوقع البكاء ، وارتفع الصراخ ، وتعالى الضجيج ، حتى كأن ذلك يوم الحشر الذى تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت . . . وأقام الجميع على ذلك إلى منتصف النهار .

ثم قام موسى إلى الصلاة فأم الناس ، وهم خشوع بين يدى الله ، فى موقف تلين فيه القلوب . وخطب الناس خطبة لم يذكر فيها اسم الخليفة الوليد بن عبد الملك كما تقضى بذلك سنن الخطبة فى الإسلام . وإذا بصوت يرتفع من وراء الصفوف قائلا :

— يا ابن نصير ! ألا تدعو فى هذا المقام لأمير المؤمنين ؟

فيرد ابن نصير على صاحب الصوت قائلا :

— « هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى ، ولا يذكر فيه غير الله الكريم » .

ولم يخيب الله دعاء الداعين ، لأنه وعد فى محكم آياته بقوله : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى » وما هى إلا لحظات حتى استجاب الله دعوات هذه النفوس الظامئة إلى رحمته ، المتعطشة إلى قطرة من جوده . فنزل المطر ، وسقى الناس حتى رووا ورويت ماشيتهم ودوابهم وحيواناتهم ، ونبت الزرع ، وجادت الأرض بالخير ، فطلعت الثمار ، ورخصت الأسعار .

فلورندة الحسناء

٤

هناك على الشاطئ المقابل لبلاد المغرب تقع فى القارة الأوربية بلاد تحيط بها المياه من كل جهة إلا جهة واحدة ، حيث تفصلها فرنسة عن جبال البرنات أو البرانس . وتسمى هذه الأرض الواسعة شبه جزيرة إيبريا وتتكون اليوم من دولتى إسبانيا والبرتغال ، وقد سماها العرب باسم الأندلس . وسواء أسميت « الأندلس » باسم جماعة من الأمم نزلوا من قديم بها فسميت بهم ، أو باسم الفاندالس الذين زحفوا من الشمال حتى بلغوا مضيق جبل طارق فى القرن الخامس قبل المسيح ، فإن لفظة « الأندلس » غير عربية الأصل ، ولم يستعملها العرب إلا فى الإسلام .

وكانت بلاد الأندلس — قبل الفتح العربى — يسكنها جماعة من القوط الذين غلبوا هذه البلاد على أمرها بعد أن حاربوا الرومان وحاصروا رومة نفسها فى القرن الثالث الميلادى، ثم كونوا بعد ذلك مملكة ، وجعلوا مدينة « طليطلة » عاصمة ملكهم ، ثم أخذت العواصم تنتقل بين قرطبة وأشبيلية ، وماردة .

وكان آخر الملوك الشرعيين لمملكة القوط فى الأندلس على عهد موسى ابن نصير رجل اسمه « غيطشة » ، وكان من بيت الملك ، وانتهى إليه عرش الأندلس بطريق الوراثة ، فلما مات غيطشة ترك خلفه أولاداً صغاراً لا يمكنهم صغر سنهم من تولى أعباء الملك بعد أبيهم . وكان هناك رجل مقرب إلى غيطشة أثير المكانة عنده ، وكانت مطامعه لا تنتهى عند حد ، فانتهز فرصة وفاة الملك وفرصة أولاده الصغار ، واستمال إليه جماعة من الرجال الذين مالوا معه فى فتنة تهدف إلى انتزاع الملك من هؤلاء الأبناء ، ونقله إلى يديه هو ، وكان اسم هذا الرجل لذريق ، أو رذريق .

ونجح لذريق فى الانقلاب الذى أحدثه فى المملكة ، وتولى مقاليد الحكم ، وجلس على عرش الملوك مع أنه لم يكن من أبناء الملوك ، ولم يكن صحيح النسب فى القوط . وأصبح بحكم نجاح المؤامرة ملكاً يعرف الناس جميعاً فى الأندلس أنه مغتصب للعرش من أصحابه ، وسارق للتاج من أربابه ، ولكنه هو لا يرى فى ذلك إلا لسان القوة التى قد تجعل الباطل

حقاً ، وتحول الكذب صدقاً . .

لم يكن لذريق ملكاً حسن السيرة ، فلم يكف أنه اغتصب الملك ، وانتزع التاج ، بل أفسد سنن الحكم ، وتعالى على بقية الملوك والأمراء الذين من حوله فى الأندلس . ولم يكفه ما أساء به إلى أولاد الملك غيطشة وانتزاع الملك من أيديهم ، بل أساء إلى « يوليان » الذى كان عاملا لرذريق على ميناء سبتة ، على الشاطئ الإفريقى فى مواجهة جبل طارق بالأندلس .

وكانت « سبتة » فى ذلك الحين ثغراً إفريقيا تابعاً لصاحب الأندلس وكان يتولى أمرها نائب عن ملك القوط يقيم فيها أكثر الوقت ، وينتقل منها بعض الوقت إلى عاصمة الأندلس ليكون على مقربة من البلاط يتقرب إليه ، ويقدم الطاعة له ، ويستمد الولاية منه . ولم يكن المدى بعيداً ، ولا المجاز واسعاً بين الشاطئ الأفريقى والشاطئ الأوربى ، فهناك ذلك المضيق الشهير المعروف ببوغاز جبل طارق ، حيث تقع مدينة سبتة ومدينة طنجة الأفريقية ، فى مواجهة صخرة جبل طارق الإسبانية .

عاش لذريق فى القصر الملكى بطليطلة عيشة الملوك ، وجعل نفسه زعيم الملوك والأمراء بالأندلس ، وفتح أبواب قصره الشاهق العظيم لأبناء الأكابر والقواد الذين كان من عاداتهم أن يبعثوا أبناءهم إلى بلاط العاهل الأكبر لينشأوا فيه نشأة ملكية ، يزينها سمت الإمارة وجلال الاتصال

بالقصور ، ولينالوا هناك من شرف النشأة فى بلاط الملك ما ينبه ذكرهم ، ويعلى قدرهم ، ويكون موضعاً لتفاخر آبائهم واعتزازهم بهم ، وليتعلموا هناك من أدب الملوك ، ورسوم القصور ، وتقاليد البلاط ما يجعل العيون تتطلع إليهم ، والرغبة تتعلق بهم ، وهناك فى ذلك الجو الملكى الفاخر يلتقى أبناء الأشراف ببنات الأشراف ، وتتمكن الأواصر بينهم ، وتزيد الألفة بينهم .

وكان الملوك يفعلون ذلك رغبة منهم فى تأليف قلوب الأشراف حولهم ، وتمكيناً لطاعتهم والإخلاص لهم ، حتى يكونوا أقوى بطانة للملك ، يصاول بهم أعداءه ، ويضرب بهم خصومه ، ويستمد منهم المعونة إذا ما دعت حاجة إلى العون . وكان الملوك فوق ذلك يبالغون فى إكرام الأبناء النازلين برحابهم ، فيحملون أعباءهم ، ويتولون تجهيز الإناث منهم إلى أزواجهن ، ويخصونهم بالكرامة التى كان يحرص الأشراف على أن ينالوها فى رحاب القصور .

وكان ليوليان صاحب « سبتة » فتاة جميلة ، بارعة الحسن ، آسرة اللحظ ، فاتنة الحديث . وأراد أبوها أن يبعث بها إلى بلاط الملك لذريق جرياً على مألوف عاداتهم . وركبت الفتاة البحر إلى الأندلس وأسلمها أبوها إلى القصر جوهرة من أغلى جواهره ، ودرة من أثمن درره .

ونشأت فلورندة ابنة يوليان بين أحضان القصر فى طليطلة كما تنشأ

الزهرة وتنمو فى جو من الحفاوة والرعاية البالغة . وكانت طاهرة كالزنبقة ، نقية كالنسيم ، بريئة كالعفة ، بل كانت هى كلها العفة مجسمة فى فتاة .

وفى يوم صائف ذهبت فلورندة إلى بركة من الماء ملحقة بالقصر محجوبة عن العيون المتطلعة لتتبرد من حرارة اليوم . وتعرت الفتاة من ثيابها ، ولم تكن تدرى أن عيناً فضولية تكاد تلتهمها . تلك هى عين لذريق الملك الخائن للأمانة ، الذى لا يعرف كيف يصون أعز ودائع الآباء . . .

وكان ما كان بين لذريق وفلورندة الحسناء ، مما أثار سخط والدها يوليان ، الذى تلقى منها رسالة خفية سرية تعلمه فيها بما كان من شأن لذريق الخائن معها ، وما كان من تلويثه أصول الضيافة الملكية وقواعد الشرف الرفيع . وفض يوليان رسالة ابنته التى تفيض بالعار والخزى ، وانتهاك العرض وابتذال الحرمات ، وأخذ يقرؤها والدم يغلى فى عروقه ، والشرر يقدح من عينيه ، ثم انتفض قائلا فى ثورة البركان :

— ودين المسيح لأزيلن ملك هذا الفاجر ، ولأعملن على تقويض سلطانه ، وتحطيم أركانه ، ولأحفرن تحت قدميه . . .

ولم ينتظر يوليان طويلا فى « سبتة » حيث مقر ولايته بالشاطىء الأفريقى ، فاتخذ سبيله إلى البحر فى مركب من أجود مراكبه التى كانت تروح وتجىء دائماً بين العدوتين : الأندلسية والمغربية . وكانت

الريح عاصفة ، والجو قارساً ، والفصل فى عنفوان الشتاء ، ولكنه لا يستطيع أن يصبر إلى اعتدال الجو ومواتاة الريح ، لأن أمر ابنته الحسناء قد شغله شغلا شديداً ، وأسخطه سخطاً ما عليه من مزيد ، فهو قلق لا يطيق الانتظار .

ولم تكن ثورة يوليان لشرفه إلا بعض الخلال الأندلسية التى زادها الإسلام فيهم بعد الفتح ، وكان اختلاف أهل العدوتين بالزيارة والاختلاط قد أكسب أهل الأندلس بعض المكارم العربية ، والحمية التى حملها البربر فى أصلابهم من ميراث عرب البادية .

وركب يوليان ذلك الجزء الضيق من البحر الأبيض المتوسط ، المعروف ببحر الزقاق ، والذى سمى بذلك كما يدل عليه اسمه لضيق مسلكه بين القارتين ، ورست سفينته على الشاطىء الأندلسى ، حيث اتخذ سبيله فى البر إلى طليطلة ، قلب المملكة القوطية ، ومقر الملك لذريق ومقام ابنته فلورندة .

ودخل الحاجب على الملك يعلمه بخبر وصول يوليان . . . والتقى فى غرفة الاستقبال بالقصر الملكى رجلان : واتر ، وموتور . وجارح ومجروح . . وابتدر لذريق ضيفه بالسؤال قائلا :

ــ ما الذى جاء بك فى مثل هذا الوقت من العام يا يوليان ؟ لعل الأمور فى « سبتة » على ما يرام !

وأجاب يوليان وهو يخفى غيظه ويستر حقده :

ــ خيراً أيها الملك ، غير أن زوجتى تعانى فى سبتة ألماً شديداً وعلة قاسية لا تستطيع معها حراكاً ، وقد اشتد شوقها إلى رؤية فلورندة ، لأنها تخشى أن تموت قبل أن تتزود منها بنظرة وداع ، وقد ألحت على فى إحضارها ، ولا أريد أن أحطم قلبها بحرمانها رؤية فتاتها الغالية وهى فى سرير مرضها ، وقد تكلفت هذه الرحلة الشاقة فى مثل ذلك الجو القارس حرصاً على أن أبلغ الأم أمنيتها ، وأحقق لها رجاءها . . . ولعل مولاى الملك مسعفى بذلك ، أو لعله بما فطر عليه من الكرم يشفى نفس أم معذبة وهى بين الحياة والموت !

ولم يجد لذريق أمام هذا الإلحاح من الوالد الجريح المتظاهر بالجهل مفراً من قبول ما طلب يوليان ، والإذن له بحمل فلورندة معه إلى أمها لتتزود منها بلقاء أخير . .

وجهز لذريق الفتاة بأنفس ما يستطيع أن يقدمه ملك فى مثل ثرائه ، ولم يدع شيئاً من ثمين الهدايا إلا خلعه عليها وعلى أبيها ، ولكنه لم ينس أن يوصيها بكتمان الفضيحة ، وعدم إفشاء السر . . . وما درى المسكين أن الذى حمل أباها على هذه الرحلة الشاقة هو ذلك السر الذى صار عند الأب غير مكتوم . . .

وخرج يوليان وابنته فلورندة معه ، وهو يضمر فى نفسه أمراً لم يفصح

لأحد عنه ، ولا صارح أحداً به ، ولكنه كان على كل حال أن ينتقم لشرفه حين تحين ساعة الانتقام ..

وكان من عادة يوليان أن يهدى من حين إلى حين طيوراً وبزاة وصقوراً إلى لذريق الذى كان يحب جوارح الطير ويهوى الصيد بها إلى حد بعيد . وما كان يوليان يضن فى سبيل ذلك بأن يتكلف إحضار البزاة والطيور الفارهة من كل بقعة من الأرض ليطرف بها الملك لذريق ، فلما تقدم الملك لوداع يوليان هذه المرة قال له :

— لا تنس يا يوليان إذا قدمت علينا فى الزيارة القادمة أن تطرفنا ببعض الطيور التى تعودت إتحافنا بها وإهداءها إلينا ، فإنها أحب الجوارح إلينا ، وآثرها عندنا !

وما كان أسرع يوليان حين أجاب :

— وحق المسيح يا مولاى لأوردن عليك طيوراً وبزاة لم تسمع بمثلها قط . . !

وقبل لذريق هذا الجواب على علاته كأنه رد طبيعى برىء . . .

ولكن ، هل كان يقصد يوليان بهذا أنه سيورد على لذريق والقوط رجالاً من العرب ينقضون عليهم كالصقور الجوارح ؟ وهل كان يوليان يسر فى نفسه أمراً بأن يلجأ إلى العرب والبربر فى بلاد المغرب ليستعديهم على الملك لذريق ، وعلى مملكة لذريق كلها ، وعلى ملك القوط كله

فى جزيرة الأندلس ؟ وهل كان ذلك سبيله فى الانتقام لشرفه المسلوب وعرضه المهتوك من الملك لذريق ؟

ذلك ما سنعرفه عما قليل .

فى الطريق إلى الأندلس

٥

نحن الآن فى أرض المغرب وعلى الشاطىء الأفريقى بعد أن حملت السفينة يوليان وابنته فلورندة عائدين إلى مقرهما بثغر سبتة . وكان يتردد على سبتة وما حواليها بعض العرب الذين كانوا فى حملات موسى بن نصير على بلاد البربر ، والذين استبقاهم القائد الفاتح فى تلك البقاع النائية ليعلموا البربر قواعد الإسلام .

وخرج يوليان مرة فى بعض شئونه فالتقى بعربى تنم عليه ملامحه التى تميزت من ملامح البربر ، وإن كانوا الآن يجتمعون فى الدين الجديد كما اجتمعوا بالأمس فى فضائل النفس ومكارم الخلق، التى هى ميراث البوادى التى لم تفسدها الحضارات .

وسأل يوليان ذلك العربى عن القائد موسى بن نصير وعن مقامه الآن فى أى أرض، فأنبأه العربى أنه يقيم بأفريقية التى اتخذها مقر إمارته .

فقال يوليان :

– وهل السبيل إلى لقاء أميركم ميسرة ، والطرق معبدة ، والأبواب مفتوحة ؟ .

فأجاب العربى :

– إن أمراءنا لا يغلقون الأبواب دونهم ، ولا يمنعون أحداً من لقائهم ، مهما كان شأنه ! فهل تبغى أيها السيد الأندلسى الوصول إلى الأمير ؟

– لا ! ولكنه سؤال خطر بالبال ، فأشكرك على كل حال . . .

وعرف يوليان أين يقيم موسى بن نصير ، فأخذ للقاء عدته ، وتنكر فى ثياب لا تدل عليه ، وفى ملامح لا تفضح عن شخصه ، واتخذ طريقه على ظهر جواد أصيل ، واتخذ معه بعض الرجال من بطانته ، وسار يطوى مضارب الأرض فى طريق لاحب طويل.. طويل جداً ، يمكنك أن تتبينه على الخريطة ، وأن تعرف قياسه بالنسبة إلى طول «دلتا النيل»...

ودخل يوليان على موسى بن نصير متكتما متخفياً ، مبالغاً فى الحذر ، راجياً أن لا يعرف أحد من الخلق من هو ولا ما هى رسالته ؟ وبدأ يوليان الحديث :

– لقد أقررتم أيها العرب الأمن فى ديار البربر وفى شمالى أفريقية كلها على كثرة ما كلفكم ذلك من ثمن ، وقد نشرتم العدل فى ربوع

المغرب حتى بت وأنا جاركم الضعيف فى « سبتة » وما حواليها أشعر بالعزة فى جواركم ، وبالحماية فى كنفكم . . .

فقاطعه موسى سائلا :

– ولكن هل أنت فى « سبتة » مستقل بتدبير أمرك ، قائم وحدك على شئون أرضك ؟

– لا يا شيخ العرب ! فإنما أنا وال على هذه الأرض من قبل ملك كبير يقيم فى الجزيرة الكبيرة المقابلة للشاطىء الأفريقى ، اسمه لذريق .

– وما سيرة هذا الرجل الذى يملك هذا الملك العريض ؟

– إنه يا شيخ العرب شر ملك فى خير أرض . . . إنها بلاد تجمع أشتات المنافع ، وأنواع المرافق ، وطيب المزارع . إنها جنة خلقها الله على الأرض حتى يمكن أن يقال إن فى الأرض جنات . . . إن الأنهار تجرى من تحتها ، والمياه تتدفق من عيونها ، والثمار الطيبة تحنى رءوس أشجارها انتظاراً للقطاف . . . والخصب يبدو فى كل شبر من أرضها ، والنسيم يرق من أنفاسها فى أية ساعة من نهار أو فى أية لحظة من ليل . وقد اعتدل فيها المناخ ، فلا هو بالبارد القارس ، ولا بالحار اللافح ، وإنما هو نفحات تصح المريض ، وتشفى العليل ! ولو أخذتُ يا أمير العرب أعد لك محاسن هذه البلاد المقابلة للشط الأفريقى ، وللساحل الغربى لنفدت منى مادة الكلام . . .

— لقد وصفت لى الأرض يا رجل ولم تصف لى أهلها ، ولم تخبرنى عن سكانها ، ولم تحدثنى عن أحوالها !

— ماذا أقول لك ؟ إن فى هذه البلاد ملوكاً متحاسدين ، وأمراء متقاطعين متدابرين ، يتربص بعضهم لبعض . . . أما كبيرهم لذريق فليس من أبناء الملوك ، ولا صحيح النسب فى ذوى التيجان . . وإنما هو زعيم وقائد استغل موت ملك شرعى ، وانتهز ضعفاً من أولاده الصغار ، فقام ونصب نفسه ملكاً ، وادعى ما ليس له ، وثبت نفسه بالقوة ، ولكنه لم يترك له صديقاً فى البلاد . . . فالملوك والأمراء الذين حوله يعادونه لأنه دخيل عليهم ، وأبناء الملك الميت يكرهونه لأنه اغتصب حقهم ، وانتزع سلطانهم . وليس فى واحد من أصحاب الأمر فى البلاد حمية لدفاع ، ولا همة لقتال ، لأن المطامع بينهم قد أفسدتهم ، وفترت حماستهم ، وأعمتهم أمورهم الخاصة ، فكل حزب بما لديهم فرحون . . .

— وما موقفك أنت من هذا كله ؟

— أنا ؟ أنا راض هنا بأمارتى على « سبتة » فى ذلك الشاطئ الأفريقى الهادئ ، فما لى وللملوك والأمراء المتفانين المتقاتلين هناك فى الشاطئ الآخر ؟! آه يا أمير العرب ! لو كان عندى السلاح والرجال لاقتحمت هذه البلاد واحتجزتها لنفسى . . . بحد السيف !

وسكت يوليان لحظة ، لعله كان ينتظر كلمة من موسى بن نصير

الذى لم يفتح فاه بكلمة ، ثم استمر فى الحديث قائلا :

— ولماذا لا تغزوها أنت أيها الأمير العربى وأنت فى كثرة من الرجال ، ووفرة من السلاح ؟ إنها لن تكون أصعب منالا عليكم من أفريقية وبلاد المغرب !

وأراد موسى بن نصير أن يطمئن إلى ما قاله يوليان ، وأن يستوثق منه حتى لا يكون الرجل مدسوساً عليهم أو مدفوعاً إليهم ، فشجعه على أن يغزو الأندلس غزوة صغيرة بجماعة من عماله وبطانته فى سبتة .

وانصرف يوليان على أن يبذل ما فى جهده ليشن الغارة على بعض مدن الساحل الأندلسى ، بعد أن تأكد أن فكرة الغزو أصبحت الآن تداعب خيال القائد المسلم الكبير .

وعاد يوليان إلى سبتة ، ولم يتردد لحظة واحدة فى شن غارة على ساحل الأندلس ، فإنه لن يخسر بهذا شيئاً ، ولن يكون فى منال ملك القوط لذريق ، بل على الضد من ذلك سيكسب ثقة العرب به واطمئنانهم إليه ، وسيؤكد بهذا العمل لموسى بن نصير أنه منحرف معه على ملوك القوط فيأنس إليه .

وجمع يوليان جمعاً آخر ، ودخل بهم البحر فى مركبين أعدهما لهذا الغرض ، ونزل بساحل الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس ، فقتل ، وسبى ، وغنم ، وأقام هناك أياماً ، ثم رجع بمن معه سالمين لم ينقص منهم

عدد ، ولم يفقد منهم أحد . . .

وشاعت الأخبار بين المسلمين عن هذه الغارة التى شنها يوليان ، فأنسوا له ، واطمأنوا إليه ، واستوثقوا أن هذا الرجل المنحرف إليهم المنحاز إلى صفوفهم ، لا بد أن يكون نفَّره من قومه فى الشاطىء الأوربى أمر خطير . . .

* * *

تحركت فى نفس ابن نصير همم كبار لفتح هذه البلاد التى وصفها له يوليان. لقد خاض هو منذ أن عين والياً على أفريقية والمغرب أهوالا كثيرة ومعارك عظيمة فى البر ، فلماذا لا يخوض إلى الأندلس غمرات البحر ، وهى ليست إلا بلداً فى مواجهة بلاد المغرب ؟

لقد استدعى موسى كاتبه وأملى عليه كتاباً يبعثه إلى الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، يخبره فيه بما أنبأه به يوليان صاحب « سبتة » من أحوال البلاد وصفتها واستعدادها للفتح تحت الظروف المحيطة بها ، وتنازع أهواء ملوكها ، وتفكك عرا الوحدة بين أمرائها ، ثم طلب منه فى النهاية الإذن له بالجواز إلى هذه الجنة الأرضية التى تنتظر فاتحاً . فإذا كانت مغلوبة على أى حال فلم لا يكون العرب الغالبين عليها المالكين لها ؟ .

ووصل الكتاب إلى الوليد ، وعاد البريد إلى أفريقية يحمل إلى موسى ابن نصير رد الخليفة الذى يقول فيه : « لا تخضها يا موسى دفعة واحدة

بكتلة جيشك ، ومجموع جندك ، ولكن خضها بالسرايا الصغيرة ، والبعوث القليلة حتى تقف على حقيقة أمرها ، وتختبر شأنها . واحذر يا موسى أن تركب المسلمين مراكب الخطر ، أو أن تغرر بهم فى بحر شديد الأهوال»

ولم يسكت موسى على هذه الملاحظة التى أبدى الخليفة منها مخاوفه ، فدعا كاتبه وأملى عليه كتاباً يوضح فيه أنه أبعد الناس عن أن يوطىء المسلمين مواطىء الهلاك ، أو يلقى بهم إلى التهلكة ، وأن البحر بين المغرب والأندلس ليس ببحر زخار متلاطم الأمواج ، شديد اللجج ، عنيف الغمرات ، وإنما هو خليج ضيق من البحر يتبين للناظر ما خلفه ، حتى ليكاد الواقف على إحدى العدوتين يرى من على العدوة الأخرى . .

وبلغ الكتاب الخليفة ، فقرأه وأصر على رأيه من وجوب اختباره بالسرايا الصغيرة قبل اقتحامه بجملة الجيش .

لم يجد موسى بن نصير بدا من الإذعان لرأى الوليد بن عبد الملك حتى لا يركب المسلمين مراكب الغرر . فاختار من مواليه من البربر رجلا من أشدهم بأساً وأجرئهم قلباً وأصبرهم على القتال ، اسمه « طريف » وبعثه فى أربعمائة رجل ، ومعهم مائة فرس بفرسانها . واختار لهذه السرية أربعة مراكب ، وركبوا جميعاً حتى نزل بهم طريف فى ساحل البحر بالأندلس ، بموضع يعرف إلى اليوم بجزيرة طريف ، تذكاراً لذلك الحادث ، وتخليداً لذكرى الرائد الأول لنزول المسلمين بالأندلس .

وأقام طريف فى جزيرة طريف أياماً حتى التأم شمل السرية كلها واجتمعت كلها على صعيد واحد ، فجعل من ذلك المكان نقطة لبداية الاستكشاف ، وأخذ يغير برجاله على الجزيرة الخضراء بالأندلس ، فأصاب مغانم كثيرة ، ووقع فى يده سبى كثير ، وكان فى وجوه السبايا من الناس ملاحة لم تقع على مثلها العيون قبل ذلك ، أما الأموال التى أصابوها والأمتعة التى غنموها ، فلقد بلغت من الكثرة والنفاسة حدًّا لم يعهدوه فيما كان لهم بأرض أفريقية والمغرب من غزوات .

طارق بن زياد

٦

لم يجد ابن نصير بعد حملات طريف الاستكشافية على أرض الأندلس القريبة من الساحل — لم يجد بداً من أن يقوم بالخطة الكبرى التى كان ينويها فى قرارة نفسه لفتح هذا البلد العظيم . لقد حملته كثرة الغنائم ، ووفرة السبايا ، وتفكك القوط ، وعدم صبرهم على القتال ، على أن يبدأ الحملة الكبرى ليقتحم الأندلس كلها بكتلة جيشه الرابض فى الشاطىء الأفريقى انتظاراً لإشارة القائد . والآن ليس أمامه سبب لتأجيل الغزو ، وتأخير الفتح .

وفتش موسى بن نصير بين رجاله وأبطاله عن رجل يلقى عليه تبعة الفتح ، ويسلمه قيادة الجيش الغازى ، ويثق به فى المصابرة والمجالدة ، ويطمئن إليه حين يضع بين يديه مصير القوات الإسلامية الغازية فى أرض غريبة عليها ، ويعرف عنه الثبات حين تنخلع قلوب الرجال ، والمضى حين تحجم النفوس ، والإيمان بالله حين يزعزع الخوف أركان القلوب . . .

ولم يطل البحث بالقائد موسى بن نصير ، إنه لا يعرف العصبية الجنسية بين عربى وبربرى ، ولا بين مشرقى ومغربى ، لأن الجميع الآن أمامه مسلمون سوى الإسلام بينهم ، ووحد بين صفوفهم ، وآخى بين صغيرهم وكبيرهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وأبيضهم وأسودهم ، فلا فضل لعربى على غير عربى إلا بالتقوى .

إنه يعرف عن مولاه «طارق بن زياد» — وهو من قبيلة نفزة من بلاد البربر — شجاعة القلب ، وصدق العزيمة ، ومضاء الإرادة . إنه يعرفه تمام المعرفة حين كان عاملا له — قبل ذلك — على المغرب الأقصى ، وحين ترك عنده رهائن البربر فى أول عهده بالقدوم إلى المغرب . إنه كان نائباً عن ابن نصير فى ولاية طنجة ، وكان يوليان يجاوره فى إمارة سبتة نائباً عن الملك لذريق ملك القوط ، وليس بعيداً أنه كان دائم الاتصال بيوليان وأنه قد اقتنع بغزو الأندلس مما سمعه من يوليان ، وأنه

بدوره حاول أن يقنع موسى بن نصير بفتحها كما أقنعه يوليان من قبل .

خرج طارق بن زياد على رأس الجيش الذى أرسله موسى بن نصير لفتح الأندلس سنة ٩٢ هجرية فى سبعة آلاف من المسلمين ، جلهم من البربر ، وحملتهم أربع سفن أعدت لذلك لنقلهم إلى الشاطىء الأوربى ، وألقت السفن مراسيها على الصخرة العتيدة القائمة هناك والمعروفة بجبل طارق ، وعلم طارق أن لذريق يجمع له من جموع القوط ما لا طاقة له به ، فكتب إلى موسى بن نصير يستنجده بخمسة آلاف أخر ، وبذلك بلغت عدة المسلمين فى معركة الفتح الأولى اثنى عشر ألفاً من المجاهدين .

والحق أن يوليان الشريف الموتور من لذريق قام فى هذه الحملة بدور خطير ، لقد تولى هو بنفسه الإشراف على إنزال جند المسلمين فى البحر ، ومكن لهم عبور البوغاز فى أمان من الغدرات والمفاجآت ، وظل معهم فى كل مرحلة يجتازونها ، يدلهم على عورات الأندلسيين ، ويتجسس لهم الأخبار ، لقد كان انحرافه إلى المسلمين على لذريق وقومه من العوامل الهامة التى عجلت بالنصر . كأن الله حين أراد فتح الأندلس على يد العرب قدر أن يكون ذلك بمعونة واحد من أهلها ، الساخطين على ملكها . وهكذا إذا أراد الله أمراً هيأ له الأسباب . . . .

والحق أن عبور العرب البحر « الأبيض » المتوسط كان أمراً سهله

الله كل التسهيل ، ويسره كل اليسر ، فلم تصادفهم ريح عاتية ، ولا عاصفة مزمجرة ، بل كانت الريح طيبة رخاء ، والسفن تجرى باسم الله .
حتى لقد كان طارق فى خلال العبور ينام ملء عينيه ، لا خوف يرهبه ، ولا قلق يزعجه . ولقد رأى فيما يراه النائم حلماً استبشر به بعد أن أفاق من نومه على ظهر المركب ، وبشر به أصحابه والمقربين إليه . .

لقد رأى طارق بن زياد فى نومه على ظهر السفينة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد التف حوله صحابته والمهاجرون والأنصار ، وهم متقلدو سيوفهم ، واضعو القسى على مناكبهم . ورسول الله يناديه قائلا : « يا طارق ! تقدم لشأنك ! » ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه وهو يدخلها خلفهم .

وهنا هب طارق من نومه مستبشراً بما رآه ، وبشر أصحابه برؤياه ، وأيقن أن هذا الحلم هو الرؤيا الصادقة التى وعد الله بها الصالحين من عباده ، وأيقن أن الله ناصره لا محالة فى مهمته ، ومؤيده فى غزوته ، فقويت نفسه ، واشتد قلبه ، وتأكد أن وعد الله قريب . . .

* * *

لم يكن هذا الحلم الجميل البشرى الوحيدة التى رآها طارق فى طريقه إلى الأندلس ، فحين ألقوا مراسيهم فى أرض الجزيرة الخضراء أصاب من أهلها سبايا كثيرة ، وكان فى السبى امرأة عجوز كانت تزعم بين

قومها أن لها علماً بالأخبار ، وأن زوجها كان رجلا يتنبأ ويتكهن ، وأن زوجها الكاهن كان يحدثهم عن أمور كثيراً ما وقعت على الصفة التى تنبأ بها . وعلى الهيئة التى كان يصفها . فما كذبت له نبوءة ، ولا خابت منه كهانة . وكثيراً ما أخبرها زوجها العراف عن أمير سيدخل بلدهم ، ويغلب عليه ، وأن هذا الأمير الغالب ضخم الهامة ، وأن فى كتفه اليسرى شامة عليها شعر . ثم اتجهت العجوز إلى طارق قائلة :

— إنك أيها العربى ضخم الهامة ، وقد صدقت النبوءة فى بعض أجزائها ، ولم يبق إلا الشامة على الكتف الأيسر ، فإن كانت بك هذه العلامة فأنت بدون شك ذلك الأمير الذى تشير إليه النبوءة ! ولم يتردد طارق فى أن يتبين أن صفات النبوءة كلها قد تجمعت فيه . . . فكشف ثوبه عن كتفه الأيسر ، فإذا بالشامة فيه على نحو ما ذكرت العجوز . .

وبالطبع استبشر طارق هو ومن معه هذه المرة ، كما استبشر بالرؤيا وهو على ظهر المركب فى طريقه إلى الجزيرة الخضراء ، وإلى الصخرة الشامخة التى تحمل إلى اليوم اسمه الكبير . . .

وكان لذريق حينما بلغه نزول طارق بالأندلس يجمع جموعه ، ويؤلب جيوشه ويضم الصفوف المتفرقة من مملكة كانت ريح الخلاف قد دبت بينها . واستطاع أن يجمع جيشاً جراراً عدته مائة ألف مقاتل ، من أنحاء متفرقة ، وأمارات مختلفة من بلاد القوط الأسبانية . وأقبل نحو المسلمين

بهذه الجموع من القوط وملوكهم وزعمائهم وفرسانهم .

وكان أيسر الظن بهؤلاء الملوك والأمراء والأفراد المتحاسدين أن يلموا شعثهم ، ويوحدوا كلماتهم أمام العدو الطارئ عليهم ، الغازى لهم فى عقر ديارهم . . . ولكنهم كانوا ساخطين جميعا على زعيمهم لذريق الذى انتزع الملك من أصحابه الشرعيين ، ودس نفسه بينهم ، ولم يكتف بذلك بل وضع نفسه موضع الرياسة فيهم ، والزعامة لهم .

واجتمع هؤلاء الأمراء فقال بعضهم لبعض : إن هذا الدعى الخبيث لذريق قد غلبنا جميعا على سلطاننا ، وانتزع الملك لنفسه ، وإن لم يكن من أهله ، وإنما كان من أتباعنا ومن خدام مليكنا العظيم الراحل «غيطشة» . ولقد فسدت سيرته بيننا ، واعوج أمره فينا ، ولسنا نعدم من أمره وسيرته أن يزيد خبالا على خبال . . . وهؤلاء العرب الطارئون علينا ، الطارقون أبوابنا هذه الطرقة العنيفة ، لا حاجة لهم فى استيطان بلدنا ، ولا الاستقرار بأرضنا ، فمصيرهم العودة إلى بلادهم ، والرجوع إلى ديارهم ، وإنما همهم أن يملئوا أيديهم من المغانم ، وجعبهم من الغنائم ، وأيمانهم من السبايا والنهائب ، ثم يرحلوا عنا ، ويخرجوا من بلادنا . فلا ضير علينا إذا نحن ساعدنا العرب ، حتى ترجح كفتهم ، وينتصر جيشهم ولا بأس بعد ذلك أن يهزموا لذريق ، لأن هزيمتهم له هو انتصار لنا ، والتخلص منه هو إخلاء للطريق أمامنا ، حتى ينزاح من سبيلنا الرجل الذى نخشاه ونخشى

بقاءه فى البلاد . . . فإذا ما انصرف العرب عن بلادنا بعد هزيمة لذريق ، استطعنا نحن بعد التخلص من هذا الخبيث أن نجلس على عرش بلادنا من يستحق الملك ، ويستأهل السلطان ، وكان ذلك يسيراً علينا بعد أن يصفى العرب حسابهم مع لذريق . .

وهنا عامل آخر قد انضم إلى عوامل أخر ساعدت فى مجموعها على انتصار العرب ، وهزيمة القوط فى الأندلس شر هزيمة . فالملوك الصغار والأمراء ساخطون على لذريق يتربصون به الدوائر ، وأبناء غيطشة الملك الذى نُزع المُلك منه ومن ذريته حاقدون على الرجل الذى اغتصب التاج منهم ، ويوليان صاحب سبتة ساخط على لذريق بسبب فعلته الشنعاء مع ابنته الجميلة الفاتنة « فلورندة » ، فهو عين للعرب على لذريق ورجاله ، وهو يغرى موسى وطارقا بالفتح ، وهو يمضى فى سفر شاق طويل إلى أفريقية ليحض ابن نصير على فتح الأندلس ، وهو ينحاز إلى العرب ويعديهم فى المراكب الاستكشافية الأولى إلى الشاطىء الأوربى ليؤمنهم فجآت الطريق . . .

ولكن من فوق ذلك كله لن نغفل من حسابنا إيمان المسلمين وشجاعتهم فى القتال ، وثقتهم بنصر الله الذى وعده المؤمنين وكان حقا عليه . نعم لن نغفل هذه الروح المؤمنة القوية التى أتاحت لبضعة عشر نفراً من المسلمين أن يغلبوا مائة ألف من الأسبانيين المكتملى السلاح والعدة .

وهل أعجب من أن تغزوا قلة قليلة كثرة كاثرة فى عقر دارها ، وعلى رقعة أرضها ، وفى مراكز إمدادها وتموينها ، وهى بعيدة آلاف الأميال عن أوطانها ، والبحر يفصل بينها وبينها ، ثم تغلبها ذلك الغلب الذى لم يشهده التاريخ فى مواكبه إلا حين فتح العرب قبل ذلك بلاد كسرى ، واستولوا على ملك قيصر فى خلافة الخليفة عمر بن الخطاب ؟

والحق أن لذريق ملك القوط وزعيم الأندلس كان على جانب كبير من الغفلة حين أعطى قيادة جيوشه المقاتلة للناقمين عليه من بيت الملك ومن أبناء « غيطشة » . . فقد ولى اثنين من أبناء غيطشة قيادة الجيش ، ولم يعلم أنهما كانا على رأس من أدار عليه الهزيمة ، فهما لا يقلان عداوة له وسخطا عليه من يوليان الموتور . . لقد كانا يمنيان نفسيهما فى حالة هزيمة لذريق برجوع مُلك والدهما إليهما .

واجتمع أبناء غطيشة ودبروا خطة للغدر بلذريق وهو فى لقاء العرب كما غدر بهم وبأبيهم من قبل واغتصب الملك منهم . وأرسلوا إلى طارق ابن زياد رسولا من عندهم ، يعلمونه أن لذريق كان تابعاً لأبيهم ، وخادماً من جملة بطانته ، ولكنه خان الأمانة وهم صغار ، فغلبهم على سلطان أبيهم وعلى حقهم المشروع فيه ، وبهذا أصبحوا أصحاب ثأر عنده ، وحق لديه . وهم لن يتركوا ثأرهم ، ولن يتنازلوا عن حقهم . وهم يطلبون منه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء بمن يتبعهم من أنصارهم . وأنهم لا يطمعون

من العرب فى شىء أكثر من أن يرد طارق إليهم ضياع والدهم بالأندلس التى اغتصبها لذريق لنفسه ، وضمها إلى حوزته . وكانت ثلاثة آلاف ضيعة من أخصب بقاع الأندلس ، وأزكاها نباتا ، وأطيبها ثمارا ، وأنفسها قيمة . . . وهى التى سميت فيما بعد « صفايا الملوك » .

ومضت أيام شهر رجب من عام ٩٢هـ منذ حط العرب رحالهم أول الأمر بصخرة جبل طارق ، ثم مضى بعد ذلك شهر شعبان كله ، وجاءت أيام رمضان الذى أُنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، واجتمع للمسلمين مع الصبر على القتال الصبر على الجوع والظمأ ، وحبسُ النفس عن الشهوات والملذات ، إلا لذة الجهاد فى سبيل الله . . وأصبح الجيشان المتقاتلان ينزلان فى معسكرين على مدى غير متباعد الأطراف . وأراد لذريق أن يستطلع أخبار المعسكر العربى ويعرف أحوالهم ، ويعاين هيئاتهم ، ويحرز عددهم ، فاختار رجلا من أخلص رجاله يثق به ، ويطمئن إليه ، ويعرف نجدته وبأسه ، ويتأكد من براعته فى فن المخابرات ، وجمع المعلومات . ثم وجه إليه الأوامر قائلا :

— ليس لنا من رجل يتعرف أحوال معسكر هؤلاء القوم المهاجمين إلا أنت ، وهؤلاء عصبة قد هبطوا على بلادنا من حيث لا ندرى ولا نحتسب ، فاجمع لنا أخبارهم ، وعاين لنا هيئاتهم ، وصف لنا مراكبهم ، واذكر لنا عدتهم وسلاحهم ، فهل هى مثل أسلحتنا ، أم عندهم من العدة ما لا

علم لنا به ، ولا طاقة لنا بملاقاته بمثله .

وذهب رسول الأسبانيين لغايته حتى طلع على عسكر المسلمين ، فلما استشرفوه وثبوا إليه ، فأطلق لفرسه العنان ، فركضوا خلفه ليدركوه ، ولكنه فاتهم بسبق جواده ، وعاد بعد ركض طويل ، وقد انقطعت أنفاسه أو كادت ، وكادت الكلمات تتعثر بين شفتيه من طول ما ناله من الإعياء . وصبر عليه لذريق حتى استرد أنفاسه ، وسكتت نفسه المضطربة ، ثم قال له :

— كيف رأيت القوم أيها الفارس الشجاع ؟ !

وجمع الفارس أطراف نفسه المتناثرة ليقول :

— يا مولاى ! إن الأمر جد لا هزل فيه ! لقد أتتك الصور التى كشف لك عنها التابوت . . . فخذ على نفسك ، والزم الحذر على ملكك وجيشك ، فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك . . . لقد أحرقوا مراكبهم التى عبروا بها البحر إلينا ، حتى تيأس أنفسهم من التعلق بها ، أو النزوع إليها ، وحتى يوطنوا أنفسهم على البقاء هنا . . . واصطفوا فى السهل الفسيح المنبسط موطنين أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم فى أرضنا مكان لمهرب ، ولا مجال لفرار . .

وكان هذا التقرير الذى ألقاه على سمع الملك لذريق عين من أخلص عيونه كافيا لأن يثير فى قلبه الرعب ، وينشر الهلع ، ويهز جوانب نفسه هزًّا عنيفا . .

طلاسم بيت الحكمة

٧

ولكن ما قصة هذه الصور التى كشف عنها التابوت للملك لذريق كما أشار الرسول ؟ وأى تابوت هذا الذى احتوى تلك الصور ؟ ؟ لعل قصة هذا التابوت ، وهذه الصور التى انكشف عنها هى إحدى تلك الخرافات والأساطير التى تنسج حول الحوادث الجسام لتضفى عليها جوا من الغرابة ، ولكنها حكاية طريفة لا بد من إيرادها هنا لنكمل بها الصورة التى نرسمها للقائد موسى بن نصير على العموم ، ولفتح الأندلس على الخصوص .

كان بأرض الأندلس ملك يحكم ولاية من ولاياتها تسمى قادس ، وكانت الأندلس فى زمان قديم كثيرة الملوك ، لكل بلد أو بلدتين بها ملك . وكان أهم شىء يشغل هؤلاء الملوك هو تحصين هذه البلاد من العرب والبربر الذين كانوا يخافونهم على جزيرتهم العامرة ، وكان البربر أشد الناس إزعاجا لهم ، لأنه لا يفصلهم عنهم إلا البحر « الأبيض » المتوسط فى أضيق مجازاته . فعزموا على أن يتخذوا لهذين الجنسين من الناس طلسما يقف فى وجههم ، ويحول دون عبورهم ، وعملوا لذلك أرصادا . . .

وكان لملك قادس ابنة بارعة الحسن فاتنة الجمال ، حلوة الدلال . .

فتسامع بها الملوك وترامت إليهم أنباء جمالها ، فتهافتوا على خطبتها ، وتسابقوا إلى طلب يدها من أبيها . وخشى أبوها إن زوجها من واحد أن يسخط الباقين . . وكان حريصاً على مودة جميع الملوك والأمراء المجاورين له ، فتحير فى أمره ، ودعا ابنته وقال لها :

— يا بنية ! ! إننى أصبحت فى حيرة من أمرك ، وأخشى إذا قبلت أحد خطابك من الملوك أن أسخط بقيتهم ممن أحرص على ودهم ، فما العمل؟

فأجابته فى اعتداد وثقة :

— اجعل الأمر إلىّ تخلص مما تخشاه من تورط .

— وما تقترحين إذن لحل هذه العقدة ؟

— أقترح أن تشترط على من يخطبنى إليك أن يكون رجلا يجمع بين الملك والحكمة !

— نعم ما اخترته لنفسك يا ابنتى !

وكتب أبوها فى أجوبته للملوك الخطاب أن ابنته اختارت من الأزواج الملك الحكيم ، فلما وقفوا على الجواب سكت منهم من لم ير فى نفسه الحكمة . وبقى اثنان أصر كل منهما على أنه الملك الحكيم .

ولكن المشكلة بقيت بغير حل ، لأنه إذا قبل واحداً منهما أسخط صاحبه ، فترك لابنته حل الإشكال بعقلها الرجيح . واقترحت الفتاة على كل منهما أمراً يأتى به ، فأيهما سبق إلى الفراغ منه قبل صاحبه كان هو

الزوج المنشود . وقالت الفتاة : إنا ساكنون بهذه الجزيرة ومحتاجون إلى أرحاء تدور بها ، وإنى مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجارى إليها من ذلك البر ، ومقترحة على الآخر أن يصنع لى طلمسا نحصن به الجزيرة من غارات من يفد عليها من الشاطىء الأفريقى !

وسر أبوها بهذا الحل الموفق السعيد ، واستظرفه وكتب به إلى الملكين الخاطبين ، فأجاباه إلى ذلك واختار كل منهما واحدا من الاقتراحين وشرع يعمل ما أسند إليه .

وكان صاحب الرحى التى تدار بالماء العذب من البر الكبير أسبق إلى إنجاز ما وعد حرصا منه على الظفر بالأميرة الفاتنة ، أما صاحب الطلسم فلم يقل عن صاحبه رغبة فى الإنجاز ، ولا طلبا للسرعة ، ولا تعجيلا للنفاذ ، ولكنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله ، غير أنه عمل أمره وأحكمه ، وشيد بناء مربعاً من حجر أبيض على ساحل البحر ، وعمق الأساس تحت الأرض بقدر ما يظهر منه على سطحها حتى يكون أثبت .

فلما انتهى البناء المربع إلى العلو الذى رسمه له ، صب من النحاس الأحمر والحديد المصفى المخلوطين بأحكم الخلط تمثال رجل من البربر ، له لحية مرسلة ، وفى رأسه ذؤابة من شعر جعد قائمة فى رأسه لشدة جعودتها ، وقد التحف بكساء جمع فضل طرفيه على ذراعه الأيسر فى أبدع تصوير

وألطف تقدير ، أما يده اليمنى فقد مدها بمفتاح قُفل قابض عليه ، مشيراً إلى البحر ، كأنه يقول بلسان الحال : الطريق مقفل ! فلاعبور ! وقد ارتفع التمثال فى الهواء إلى ما ينيف على سبعين ذراعا . . .

ولم يكد يتهيأ لصاحب التمثال موعد رصد ملائم حتى أخذ الملكان يتسابقان إلى الفراغ ، و يتنافسان فى الإنجاز ، لأنه بالسبق يستحق زواج الفتاة الحسناء !.

وكان الخاطب صاحب الرحى التى تدار بالماء فيه دهاء واحتيال ، فقد فرغ أولا من عمله ، ولكنه أخفى أمره عن صاحب الطلسم خشية أن يترك عمله حين يعلم أن منافسه قد سبقه . . فلا يتم إنجاز الطلسم ، وهو حريص على إنجازه لتحظى الأميرة الحسناء بالرحى والطلسم جميعا ! فلما علم باليوم الذى يفرغ صاحب الطلسم فى نهايته من إنجازه ، أدار هو الرحى التى صنعها بالماء العذب ، حتى اشتهر أمرها ووصل إلى صاحب الطلسم وهو فى أعلى قمة التمثال يصقل وجهه ، فلما استيقن أنه مسبوق ، وأن فتاة أحلامه قد ضاعت من يديه ضعفت نفسه ، واسترخت مفاصله ، وفقد توازنه ، فسقط من أعلى التمثال الشاهق جسداً لا حراك به !

وبهذا حصل الملك صاحب الرحى على الأميرة والرحى والطلسم . . واتفق ملوك الأندلس بعد ذلك على أن يودعوا الطلاسم التى صنعت لوقاية

بلادهم من غارات المغيرين فى تابوت من الرخام وضعوه فى بيت بمدينة طليطلة ، وكان هذا البيت مغلقاً متحامى الفتح ، وعليه أقفال عدة بعدد ملوكهم ، من عهد إقامة الطلسم إلى عهد الملك لذريق آخر ملوكهم . وكان يتولى حراسة هذا البيت قوم من ثقات القوط لكى يمنعوا الملوك من فتحه ، وجرى على ذلك أمرهم ، فكلما جلس على عرش الأندلس منهم ملك أتاه أولئك الحراس الثقات الموكلون بالبيت ، فأخذوا منه قفلا ، ووضعوه على الباب مقفلا ، من غير أن يزيلوا قفل من تقدمه .

وبلغت الأقفال على باب التابوت ستة وعشرين قفلا ، لكل ملك قفل ، ولم يحاول واحد من هؤلاء الستة والعشرين أن يفتح الأقفال ليرى ما وراءها ، فقد كانوا يتشاءمون من ذلك أشد الشؤم ، ويحذرون أن يقع عليهم منه شر مستطير .

ولكن الملك لذريق جاء بعد اغتصابه الملك من غيطشة ، وحدثته نفسه أن يفتح هذه الأقفال ليكشف عما وراءها . فجمع وزراءه وخواص دولته ممن يثق بهم ، وأهل الرأى فى المملكة ، وقال لهم : « إنى جمعتكم اليوم لآخذ رأيكم فى هذا البيت الذى يضع كل ملك جديد فيه قفلا من غير أن يفتح أقفال من تقدمه من الملوك . وقد نازعتنى نفسى أن أفتح هذا البيت المقفل بهذه الأقفال لأنظر ما فيه ، وأرى ما يحتويه ، فإنه لم يعمل عبثاً . . »

فقال له واحد من أسدهم رأياً ، وأحصفهم نظراً : « أيها الملك صدقت ! فإنه لم يصنع عبثاً ، ولم يقفل سدى ، وإنما لا بد هناك من حكمة فى التوصية بأقفاله ، والحرص على سده وبقائه مغلقاً . وقد ظل ستة وعشرون ممن سلفك من ملوك الأندلس يجرون على هذه السنة حين ألقيت إليهم مقاليد الملك . فلماذا تحاول أنت أن تغير سنتهم ، أو تخالف طريقتهم ؟ والرأى والمصلحة أيها الملك أن تلقى أنت أيضاً عليه قفلا ، أسوة بمن تقدمك من الملوك . وقد كان أسلافك فى عرش هذه البلاد لم يهملوا هذا ، فلا تهمله أنت ، وسر سيرهم . فنحن نخشى أن يصيبنا شر من فتحه . . »

فقال لهم الملك : « أنا لا أستطيع أن أرى هذا السر مغلقاً محكماً عليه بالأقفال ، من غير أن تنازعنى نفسى إلى كشفه ، وإذا كان أسلافى لم يفعلوا ذلك ، فلست ملزماً أن أسير على طريقهم . ولا بد لى من فتحه . . » ورأى الأمراء والوزراء وبقية ملوك الولايات الأندلسية إصرار كبيرهم لذريق على فتح الأقفال ، فحاولوا أن يصدوه عن عزمه ، وأن يثنوه عن المضى فى طريق يخافون منه انفتاح باب الشر عليهم وقد كان موصداً . فقال له أحدهم متكلماً بلسانهم ، ونائباً عنهم : « أيها الملك ! إن كنت تظن أن وراء هذه الأقفال مالا مخبوءاً ، أو كنزاً مدفوناً ، فقدره لنا كما يراه رأيك ، وكما يتصوره حسابك ، ونحن نجمع لك

من أموالنا نظيره ، ونقدمها لك ، بدلا من فتحه ، حتى لا تحدث لنا علينا بذلك حادثة لا نعرف عاقبتها ! »

وأصر الملك لذريق على فتح البيت الذى تحامى الملوك قبله فتحه ، وكان فيه عناد فى الرأى ، وصلابة فى الفكر ، فأمر بفتح الأقفال ، واجتمع الأمراء والوزراء والأشراف فى يوم معين ليشهدوا ذلك الحادث الذى لم يكونوا يتوقعون حدوثه ، ولعل خوفهم من سوء العاقبة قد غطى عليه فضولهم لمعرفة ما وراء هذه الأقفال . وكان على كل قفل مفتاحه معلقاً ، فلما فتح الباب رأوا تابوتاً وعليه قفل ومفتاحه ، فتناوله لذريق وفتحه ، فلم يجد فيه غير رق كبير من الورق أو ما يشبه الورق ، وعليه صور فرقة من قوم على هيئة العرب ، على رءوسهم العمائم ، وهم على صهوات خيل عربية أصيلة ، وقد تقلدوا السيوف ، وتنكبوا القسى ، ورفعوا الرايات على الرماح . . .

وأدهشتهم هذه الصورة ، فأخذوا يقلبون ما حواليها لعلهم يعثرون على ما يزيح الستار عن سرها ، فوجدوا عبارة مكتوبة بلغتهم ، وتقدم رجل منهم ليقرأ العبارة فإذا فيها : « إذا كسرت الأقفال عن هذا البيت ، وفتح هذا التابوت ، وظهر ما فيه من الصور ، فإن هذه الأمة المصورة رجالها على هذه اللوحة سيدخل رجالها جزيرة الأندلس ، فيتغلبون عليها ، ويذهب ملك من فيها من أيديهم . . . »

وندم الملك لذريق ندماً شديداً على ما فعل ، وأيقن أن أمراً عظيماً سيحل بدولته ، وتمنى لو لم يكسر الأقفال التى أنذره ما خلفها بشر عظيم . ولم يمض طويل على فتح بيت الحكمة ، وكشف التابوت حتى كان العرب فى طريقهم إلى الأندلس ، وحتى كان الرسول الذى بعثه لذريق ليتجسس على معسكر العرب ، فرجع إليه وهو يقول كما سبق : « يامولاى لقد أتتك الصور التى كشف لك عنها التابوت ! »

الملك الغريق

٨

التقى الجيشان غير المتعادلين فى العدد والعدة لقاء هائلا فى أخريات شهر رمضان ، وكان لذريق فى مائة ألف من فرسانه ، ومعهم العجلات التى تحمل الأموال والمتاع ، وهو فى عجلته الحربية ، قد نصب له فيها سرير من الذهب ، بين دابتين من أفره الجياد ، وحوله حرسه القريب منه ، قد أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، وطوقوه حتى يكون فى دائرة من الأمان ، وعلى رأسه مظلة مكللة بالدر ، ومرصعة باليواقيت والزبرجد ، وهو فى أبهى حلة ، وأتم زينة .

ورسم لذريق خطة يتحرك بها أولا ليبدأ الهجوم على معسكر المسلمين

وكانت عيون طارق تواليه دائماً بأنباء الأسبانيين وتحركهم ، فخرج إليهم طارق بجميع رجاله ، وجملة أصحابه ، وهم مشاة يضربون أرض الأندلس الجديدة على خطواتهم بمواقع عنيفة تحمل فى أصدائها معنى الإيمان والإقدام . وبلغ طارقاً صفة جيش الأندلسيين ، وكثرة رجاله ، وكثرة فرسانه ، وكثرة ما فيه من العدة والسلاح ، فأراد أن يحمس العرب على القتال ، ويشجعهم على الجهاد مهما لقوا فى سبيل غرضهم ، فجمعهم فى ذلك الموقف الرهيب وخطب فيهم خطبته المشهورة : « أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام ، فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر [1] لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهب ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخصُ متاع فيها النفوس . ولم أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم

(١) لا وزر : أى لا ملجأ ولا سند .

إن صبرتم على الأشق قليلا ، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصةً لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين .

واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق ، فقاتلهُ إن شاء الله تعالى . فاحملوا معى ! فإن هلكتُ بعده فقد كفيتكم أمرهُ ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه . وإن هلكتُ قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون . »

وما أتم طارق خطبته حتى عاهده العرب على صدق الجهاد . وبذل النفس ، وإرخاص الأرواح ، وقالوا له : « لقد قطعنا الآمال مما يخالف

ما عزمت عليه ! فهلم إليه فنحن معك ، وبين يديك !» .

اتصلت المعركة الأولى للفتح من أخريات رمضان إلى اليوم الخامس من شهر شوال ، وقد مر العيد ، عيد الفطر على المسلمين وهم فى صميم الموقعة ، وفى شدة القتال . وكان اللقاء عنيفاً ، وانهزمت ميمنة الجيش الأسبانى كما انهزمت ميسرته ، وكان عليهما ابنا غيطشة ، ولعل تراخيهما فى القتال يرجع إلى الثأر الذى لهما عند لذريق بانتزاع ملك أبيهما .

وانجلت المعركة الرهيبة عن كثير من قتلى أهل الأندلس ، حتى كانت الجثث بعضها فوق بعض مكدسة فى أطراف الميادين ، وظلت العظام بعد ذلك زماناً طويلا مبعثرة فى تلك الأرض ،لم يستطع أحد إزالتها أو نقلها من مكانها .

وحاز المسلمون من معسكر القوط ما يجل قدره ، وما لا يستطاع وصفه ، وكأنما فتحت لهم كنوز هذه البلاد ومدخراتها دفعة واحدة . أو كأنما انصبت عليهم المغانم كما ينهمر المطر من السماء . وحصلت فى أيديهم أثقال وأحمال وأكداس من الذهب والفضة والدرر والجواهر واليواقيت ، مما كان يفتن ملوك القوط فى جمعه والمباهاة به .

وكان المسلمون يميزون أصحاب الجثث المطروحة على أرض المعركة ، ويعرفون طبقاتهم مما يحملونه من الخواتم التى كانت عادة أهل البلاد أن يتختموا بها ، كل على قدر ثروته ومكانته . فكبارهم وأمراؤهم وأشرافهم

يتختمون بالذهب فى أصابعهم ، والمتوسطون منهم يلبسون خواتم الفضة ، أما عبيدهم وخدمهم فكانت خواتمهم من معدن النحاس . . .

وهنا يحملنا الشوق إلى أن نعرف مصير الملك لذريق . لقد ثبت فى قلب الجيش بعد أن انهزمت ميمنته وميسرته ، وأيقن الملك أنه لا مفر من شرب الكأس حتى نهايتها ، فقاوم بمن بقى معه من الجند مقاومة المستيئس ولكنها مقاومة لم تكن لتطول ، فقد هزمت البقية وهزم معها لذريق ، واستمرت الهزيمة ، والمسلمون يحملون على القوط حملة صادقة ، فقد استيقنوا أنه إما الموت أو الصبر حتى يفعل الله ما يريد . وأذرع العرب القتل فى الأسبانيين ، حتى كان كل شىء يؤذن بأن النصر للفاتحين عما قريب . . .

وبينما المسلمون فى قتالهم إذا بالملك لذريق ، وقد خفى أثره من المعركة ، كأن الأرض ابتلعته ، فلم يعلموا من أمره شيئاً . . . ولكنهم فى نهاية الموقعة وجدوا فرسه الأشهب الذى كان مسرجاً بالذهب المكلل بالياقوت والزبرجد ، وهو وحيد ليس على صهوته صاحبه . وقد ساخ الفرس فى طين قريب من نهر ، وعلى مقربة من الفرس فرد من حذاء مذهب مفضض هو أشبه بأحذية الملوك . . . نعم : إن الفرس هى فرس لذريق بعينها وبسرجها الذى لم يكن فى جيش القوط مثله ، وإن هذا الخف هو خف الملك لذريق ، وقد بقى منه فرد ، ولم يوقف للآخر على أثر . .

أما لذريق نفسه فلم يوقف له على أثر أيضاً . . . فقال قوم إنه نزل إلى النهر وألقى بنفسه فيه فراراً من عار الهزيمة ، وخوفاً من أن يقع فى أيدى العرب .

ولما رأى أهل الأندلس هذا المصير الذى نزل بجيوشهم وبملوكهم وعلى رأسهم لذريق ، تهاربوا من السهل ، وارتفعوا إلى الأراضى المرتفعة حيث القلاع والحصون ، ثم اعتصموا بقنن الجبال حتى لا يدركهم الفاتحون.

وترامت أنباء هذا الفتح الجليل إلى بر العدوة بالشاطىء الأفريقى ، وسرت بين العرب فى أقصى بلاد المغرب أخبار الغنائم التى لا تحصى مما لا يخطر على قلب ، فاجتازوا البحر من ثغور المغرب ، وأقبلوا على الأندلس من كل وجه ، حتى ازدحم بحر الزقاق بسفنهم وقواربهم ، ومن لم يجد منهم زورقاً احتال على أن يعبر مضيق جبل طارق على ألواح من الخشب ، واندفعوا جميعاً كالسيل المنهمر نحو هذه الأرض المملوءة بمغانم لم تكن لهم فى حساب . . .

واندفع طارق بن زياد بجنده حتى أتى مدينة « شدونة » ، ولكن أهلها امتنعوا عليه ، واستبسلوا للقتال ، فضيق الحصار عليهم ، حتى أصابهم الضر ، وأنهكهم الضيق فاضطرت إلى الاستسلام بعد أن فتحها عنوة وغنم منها شيئاً كثيراً . وظل طارق يميل من بلد إلى بلد ، ويوغل فى شبه الجزيرة ، محاولا أن يهزم فلول المقاتلين .

ورأى القوط أن طارقاً لم يكتف بما أصابه من مغانم كثيرة ، وأنه لا يفكر فى الرجوع إلى بلده ، وأن توغله فى بلادهم يدل على أنه ينوى لها أمراً ، ويدبر لها شيئاً ، فقذف الله الرعب فى قلوبهم ، وسقط فى أيديهم ، وأيقنوا أن هذا الطارئ لا يكتفى بعد الغنيمة بالإياب . . فطاروا سراعاً إلى المعاقل يعتصمون بها ، وتراجعوا إلى شمال الجزيرة فراراً من الهول فى جنوبها ، وارتد ذوو القوة منهم إلى مدينة طليطلة ، وهى دار مملكتهم ، وقصبة ديارهم .

ولم يعدم طارق أسباب الاحتيال على إلقاء الرعب فى قلوب الأسبانيين بعد ما أتيح له من النصر والفتح الذى تفتحت له أبواب السماء . فجمع أسرى القوط ، وجمع أصحابه حوله وحولهم ، وأمرهم أن يمزقوا أوصال القتلى ويقطعوا لحومها ، ويضعوها فى قدور كبيرة ، وجفنات عظيمة ، ليوهموا الأسرى أنهم يطبخون هذه اللحوم الآدمية لأكلها ! وسرت بين أسرى القوط هذه الأنباء ، وانتقلت منهم إلى من وراءهم خلف الخطوط ، فامتلأت قلوب القوم ذعراً ورعباً ، وأخذوا يجفلون فراراً من قوم لا يعافون اللحم الآدمى ، بل يؤثرونه على أطيب أنواع اللحوم . . .!

وأخذ طارق بن زياد يرسل الجيوش من رجاله إلى أنحاء الأندلس المتفرقة لفتحها ، فبعث جيشاً إلى قرطبة ، وآخر إلى مالقة ، وثالثاً إلى غرناطة ، وسار هو يريد مدينة طليطلة حاضرة المملكة .

وكان القائد الذى أرسل لفتح قرطبة « مغيثٌ » الرومى مولى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وكان من موالى الروم الذين دخلوا فى الإسلام فشرح الله صدورهم له . وكانت مدينة قرطبة فى ذلك العهد من أعظم مدائن الأندلس وأكثرها ازدهاراً ، وأجملها عمارة .

وأقام مغيث على محاصرة أمير قرطبة ثلاثة أشهر ، وهى تحتمل كل هذا الحصار الطويل ، حتى ضاق مغيث من ذلك وطال عليه ، وهو غير مستطيع الدخول إلى الحصن . فتقدم إلى رجل أسود من عبيده اسمه « رباح » وكان معروفاً بالبأس والنجدة ، وأمره بأن يكمن فى أيكة ملتفة على مقربة من الحصن ، لعله أن يظفر بواحد من القوط يقف منه على خبر القوم المحاصرين ، ويعرف منه طريق الوصول إليهم .

ومضى « رباح » إلى مهمته فى التجسس ، ولكنه — على الرغم من نجدته وبأسه — كان ضعيف العقل سيء التدبير ، ودعاه ضعف عقله إلى أن صعد فى بعض أشجار الأيكة ليأكل من ثمرها الذى سال لعاب العبد له ! فبصر به أهل الحصن من خلال مخابئهم فى داخله ، فشددوا عليه وأخذوه ، وساقوه إلى كبيرهم . ولكن سواد لونه قد ألقى الرعب فى قلوبهم ، فأنكروا خلقه لأنهم لم يكونوا قبل ذلك عاينوا إنساناً أسود !

واجتمع القوم على « رباح » فى سواد جسمه ، وكثر لغطهم ، واشتد تعجبهم من خلقه . وظنوا أنه طلى جسمه بطلاء أسود ! أو بصبغ

من تلك الأصباغ التى تسود الجلد . والعبدُ بين أيديهم لا يستطيع الإفلات من زمامهم بعد أن أوقعه فى الشرك سوء رأيه . .

وأراد القوط أن يستوثقوا من لون « رباح » ، فجردوه من ثيابه كيوم ولدته أمه ، وأدنوه من القناة التى كان الماء يأتيهم منها ، وأخذوا فى صب الماء عليه ، وغسله وتدليكه بالحبال والليف ، حتى أدموا جسمه ، وأصابه منهم إعنات كبير . . . واشتدت استغاثته وعلت صرخاته ! وأشار إليهم — بالإشارة — أن الذى به من السواد هو خلقة الله ، لا صبغة إنسان ! وكان فهمهم لإشارته فى النهاية بعد أن نال منه الأذى كثيراً . . !

وبقى رباح بينهم أسيراً سبعة أيام ، وهم فى خوف منه ، وفى عدم اطمئنان إليه ، ولم يتركوا التجمع عليه لحظة واحدة ، والنظر إليه دائماً ، كأنما وقعوا على شيء غريب عجيب !

وأخيراً يسر الله له الخلاص ليلا ، فاستطاع أن يهرب فى ظلام ليل حالك مثله ! وأتى الأميرَ « مغيثاً » ، وأخبره بأمرهم ، ودله على شئونهم وعلى موضع الماء الذى منه يستقون ، ومن أين يأتيهم . .

وسد العرب منافذ الماء إلى الحصن ، فانقطع الماء عن المحصورين ، وأيقنوا بالهلاك . وفر عنهم أميرهم وحده حين لم يطق صبراً على هذا البلاء ، وهرب إلى طيلطلة ، ولكن مغيثاً كان وراءه كالليل الذى يدرك الإنسان مهما ظن أن المنتأى عنه واسع . . . فلحقه قرب قرية صغيرة تسمى

« تطليرة » وهو ممتط صهوة فرس أصفر اللون ، ذريع الخطو . فاضطرب الأمير حين رأى « مغيثاً » أدركه ، وأنه لا محالة واقع فى قبضة يده ، فانخلعت نفسه وسقط من على فرسه سقطة لم يحمه من أذاها إلا ترسه ، فقبض عليه « مغيث » ، وجرده من سلاحه واستبقاه عنده حبيساً إلى أن يعود به إلى دمشق . ليقدمه إلى مولاه الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين .

وكان هذا الأمير أو الملك الصغير هو الأسير الوحيد فى خلال فتح العرب للأندلس ، لأن بعض ملوكها اختفى أو ابتلعته مياه النهر مثل لذريق ، وبعضهم طلب الأمان فأجيب إليه ، وبعضهم هرب إلى جليقية حتى لا تناله أيدى الفاتحين . . .

ابن نصير فى الأندلس

٩

انتهى رمضان من عام ٩٢ هـ بالفتح العظيم على يد طارق بن زياد ، وانتهى عيد الفطر بعده بالانتصارات التى أخذ يتلو بعضها بعضاً ، وبالفتوح الكثيرة التى هيأها الله للعرب ، ومر من دورة الزمان عام كامل ، وجاء شهر رمضان من سنة ٩٣ هـ بعد أن ملأت أخبار الفتح العظيم سمع الزمان ، وبلغت إلى أذن موسى بن نصير وهو فى مقامه بشمالى أفريقية ، فعزم على المسير إلى الأندلس فى حملة أخرى يتولى هو قيادتها بنفسه ،

لأنه لم يتعود القعود دائماً فى أرض ، وإنما له همم لا منتهى لكبارها . وقد مهد له « طارق » الطريق إلى الأندلس ، فلماذا لا يتهيأ هو للمسير بنفسه ؟ .

ودعا موسى بن نصير إلى الحملة ، فأقبلت عليه الجموع من العرب والبربر بأعلامها متلهفة إلى الجهاد ، متطلعة فى شوق وحرارة إلى القتال ، واستخلف على أفريقية أسن أولاده ، وهو عبد الله بن موسى بن نصير ، وعبر برجاله البحر كما عبره طارق منذ عام ، وكان أصحاب « يوليان » يدلونهم على الطريق ، ويمهدون لهم جواز البحر فى أمان .

ونزل موسى بر الأندلس ، فتحاشى أن يسلك الطريق الذى سلكه طارق ، خشية أن يقال إنه كان يقفو أثره ، ويتبع خطاه ، بل تحاشى أن يقف بصخرة جبل طارق ، فوقف بصخرة أخرى سميت صخرة موسى ابن نصير . . .

واستعان موسى بأتباع يوليان وأصحابه على أن يتنكب دائماً الطرق التى سارت فيها خطوات الحملة الأولى ، حتى يمشى فى الفتح دائماً على طريق جديد غير مطروق . . . وقال له أصحاب يوليان : « نحن ندلك على طريق أغنى من طريق طارق ، وندلك على مدائن أعظم قدراً ، وأكبر خطراً ، وأوسع مغنماً من المدائن التى انتهى إليها ، وهى لما تفتح بعد ، ولعل الله يفتحها عليك ! »

ومضى موسى بن نصير فى جانب ساحل مدينة « شدونة » ففتحها عنوة ، وألقى أهلها بأيديهم إليه ، ثم سار إلى مدينة « قرمونة » ، ولم يكن بالأندلس كلها أحصن منها ، ولا أمنع على من يرومها ، ولا أعز على من يريدها بقتال أو حصار . فلجأ إلى الحيلة فى فتحها ، وذلك أنه بعث إليها جماعة من أصحاب يوليان ، على هيئة رثة ، وصورة منهزمة ، كأنهم فلول من جيش الأندلس المهزوم يلتمسون ملجأ ، ويطلبون مهرباً ، ففتحوا لهم أبواب المدينة ، وإذا بجيش موسى من ورائهم يقتحم الأبواب عليهم ، ويطرقهم بخيله . فلم يجدوا بدا من الاستسلام . . . وهكذا وقعت القلعة الحصينة ، والمدينة المنيعة ، فى قبضة العرب الفاتحين . . .

وظل ابن نصير ينتقل برجاله من فتح إلى فتح تنقل الأقمار فى السماء ، وهو لا يعلم عن طارق شيئاً ، فلكل وجهة هو موليها . . . ومضى إلى مدينة أشبيلية — وكانت عاصمة البلاد قبل أن يملكها القوط ويتحولوا إلى طليطلة — فحاصرها ، وسلمت إليه بعد أن امتنعت عليه أشهراً ، ومضى منها إلى مدينة ماردة ، وكانت قصبة للبلاد فى سالف الدهر ، وكان بها آثار وقصور ومعالم جليلة القدر ، فائقة الوصف ، فحاصرها . ولكن أهل ماردة كانوا ذوى عزة ومنعة وبأس شديد ، ولم يكونوا ممن يستسلمون فى سهولة ، أو يضعون السلاح فى يسر وتسليم ، بل كانوا أشداء على المسلمين ، فنالوا منهم نيلا عظيماً ، وقتلوا منهم كثيراً .

وكانت تلك أول معركة شالت فيها كفة العرب . . .

واستعصت أبراج المدينة وأسوارها على المسلمين ، فلجأ موسى إلى دبابة ، وثبتوها تحت برج من أبراج السور العظيم الممتنع ، وجعلوا ينقبون الحجر حتى نبتْ عنه معاولهم ، وكلتْ دونه عدتهم وسواعدهم ، وصادف القوطُ منهم غفلة ، وأصابوا منهم غرة ، فاستشهد تحت الدبابة جماعة كثيرة من المسلمين ، سقطوا تحت البرج العتيد العنيد ، فسمى ذلك الموضع « برج الشهداء » .

ولجأ موسى بن نصير إلى حسن الاحتيال حتى ينال بالحيلة والدهاء ما وقفت الأسوار والأبراج دون نيله بالقوة . فدعا أهل المدينة إلى السلم ، وأعطى الأمان لجماعة من أماثل القوم وأشرافهم بالمدينة ليخرجوا فى عسكره ويفاوضوه على الصلح . واحتال على أن يطالع عليهم فى كل لقاء بوجه جديد . . فدخلوا عليه أول يوم فإذا هو أبيض الرأس واللحية وقد جلله المشيب ، ولم يبرم معهم فى ذلك اليوم أمراً ، وأمهلهم إلى الغد . . . فلما عاودوه فى اليوم الثانى رأوه — وقد خضب شعره بالحناء — أحمر أشقر كأن شعره شعلة من ضرام . . فعجبوا لذلك أشد العجب لأنهم لم يكونوا يعرفون الخضاب بالحناء . . وفى اليوم الثالث عاودوه لإتمام المفاوضة فإذا شعر رأسه ولحيته أسود كفحمة الليل الحالك . . . فازداد تعجبهم من هذه الحالات المتغيرة ، وقالوا إنما نحن لا نقاتل قوماً من

البشر ، وإنما نقاتل خلقاً عجيباً يتخالقون كيف شاءوا ، ويتصورون فى كل صورة أحبوا !! لقد كان ملكهم أو أميرهم من يومين اثنين شيخاً أشيب ، فصار شابا أسود الشعر ! والرأى أن نهادنه ، ونعطيه ما يطلبه ، فما لنا به طاقة ، وليس لنا دونه قوة . . !!

وهكذا صالحوه ، وألقوا إليه بأموالهم ونفائسهم وحليهم ، وكان ذلك فى يوم الفطر من سنة ٩٤ هـ ، فاجتمع بذلك للمسلمين عيدان عظيمان . .
وجاءت إليه الأنباء وهو بماردة أن أهل أشبيلية انتقضوا على المسلمين ، فبعث إليها ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير بجيش أعاد فتحها ، وأقر السلم فيها ، ووطد فيها دعائم المسلمين .

وأصبحت أسماء المدن الأندلسية مألوفة فى آذان العرب الفاتحين ، وعلى مدار ألسنتهم لكثرة تعاورهم عليها ، وفتوحهم لها ، فكانوا كل يوم يفتحون بلداً جديداً ، فلما وصل ابن نصير إلى « سرقسطة » كان العطش قد نال منه ، فاستقى من مائها ، فاستعذب مذاقه ، وقال إنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه ، وسأل عن اسم ذلك النهر الذى منه هذا الماء ، فذكروا له أن اسمه Gallego ، فقال : إذن هذا نهر « جلق »[1] ، وهذه غوطة دمشق ، لأن البساتين التى تحدق بسرقسطة تشبه غوطة الشام إلى حد كبير . . .

(١) جلق : هو الاسم القديم لدمشق قبل أن يفتحها المسلمون .

غنائم الفتوح

١٠

جاءت إلى موسى بن نصير أنباء بأن طارق بن زياد قد توغل فى الجزيرة إلى أقصى حدود الشمال ، وكان بعد استيلائه على طليطلة قد تابع زحفه شمالا ، واخترق مملكتى ليون وقشتالة ، حتى بلغ « إسترقة » ، وأشرف على شواطىء أسبانية الشمالية .

ولعل عوامل من الغيرة قد حملت ابن نصير على أن يكتب إلى طارق بأن يتوقف عن التقدم خطوة وراء ما بلغه يوم انتصاره على لذريق ، ولكن طارقاً لم يذعن ومضى فى الفتوح لا يبالى بما أمره به موسى بن نصير .

ولعل موسى قد خشى على الجيش الذى تحت إمرة طارق أن يهلك فى هذه البلاد الشاسعة أو يبعد كثيراً عن قواعده ، فأمر طارقاً بأن لا يتعدى قرطبة التى فتحت على يد « مغيث » .

ومهما يكن من أمر فقد غضب موسى على مولاه طارق غضباً شديداً لأنه خالف أمره ، وبلغ فى الفتح إلى غايته ، ورمى بجنده إلى أبعد الآفاق فى الأندلس من غير أن يحصل على إذنه .

وتقدم موسى يريد طارقاً ، وعلم طارق من ناحيته بورود ابن نصير

إلى الأندلس وفتوحه فى البلاد فأقبل عليه يقدم إليه ولاءه ، فلما وقعت عينه عليه نزل من على ظهر الجواد إعظاماً له ، وإجلالا لمقامه ، وتقدم راجلا يحييه ، فلقيه موسى مغضباً معاتباً ، وأغلظ له القول موبخاً له على مخالفة أمره ، وعدم الوقوف عند الحد الذى أشار به .

قد يكون لهذا اللقاء الجاف الغليظ من موسى لمولاه طارق أثره فى نفس الرجل الذى خاض بالمسلمين غمرات البحر لأول عهدهم بفتح الأندلس ، ووطأ لهم أكناف الأرض الجديدة عليهم حتى دنا لهم بعيدها ، وسهل أمامهم صعبها . . . ولكن المسلمين لا تتفرق كلمتهم على أى حال ، فما بالهم وهم فى أرض الأعداء الذين انتزعوا بلادهم وسلطانهم ؟

لقد سار الرجلان العظيمان فى بقية الفتوح جنباً إلى جنب ، بل رضى موسى عن طيب خاطر أن يجىء على أثر طارق بن زياد ، يكمل ابتداءه ، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه .

وكتب الله لموسى بن نصير نصراً مؤزراً عزيزاً فى كل بلد حل به ، وفى كل ولاية دخلها ، حتى أجفلت الملوك من القوط بين يديه ، وامتد فى الفتوح وطارق معه حتى بلغ جبال البرانس التى تفصل بين أسبانية وبين أرض فرنسة التى كان يسميها مؤرخو العرب « الأرض الكبيرة » .

وجزع الفرنج أو سكان فرنسة لهذا الهجوم الذى لم يكن يخطر لهم على بال ، واجتمعوا لملكهم الأعظم شارل أو « قارلة » — كما تسميه

العرب وقالوا له : « أيها الملك العظيم ! ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس ، حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، بجمعهم القليل ، وسلاحهم الضئيل ! » .

وازداد موسى بن نصير توغلا فى بلاد الأندلس ، حتى بلغ برشلونة فى شرقى الأندلس ، وبلغ مدينة أربونة فى الجوف ، ووصل إلى قادس فى الغرب وجمع من بلاد الأندلس غنائم كثيرة ، ونفائس لا يدركها الوصف . وكانت مغانمه ومغانم مولاه طارق بن زياد مما لا يحصى كثرة ، ومما يدهش العقول ويحير الألباب . وكان فى جملة ذلك « المائدة العظيمة » بمدينة طليطلة ، التى افتن ملوك الأندلس فى صناعتها وتفخيمها حتى كان كل ملك جديد يضيف إليها شيئاً من طرائف الصنعة ونفائس الجواهر ، زيادة على ما أضافه السابقون ، حتى اشتهرت وطار ذكرها فى العالم المعروف لذلك العهد ، وخصها ملوك القوط بهذه العناية حتى لا يظهر فى البلاد كلها شىء أعلى منها نفاسة وأغلى قيمة . . وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة ، فيخطف بريقها الأبصار ، لأنها كانت مصنوعة من خالص الذهب ونقى الفضة ، وكان عليها أطواق من اللؤلؤ ، وأخرى من الياقوت . وثالثة من الزمرد ، وهى مرصعة فيما بين ذلك بنفيس الجواهر . وكانت الطنافس والأبسطة التى غنمها المسلمون مما يعجز البيان

عن وصفه ، ومما فاق ما أصابوه من المغانم فى فتح بلاد فارس أيام الخليفة عمر بن الخطاب . حتى كانت الطنفسة الواحدة توجد منسوجة بقضبان الذهب وأسلاكه ، وتنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وكان البربر والعرب إذا وقعت لهم واحدة من هذه الطنافس لا يستطيعون حملها لكثرة ما تنظمه أسلاكها من الذهب والحجر الكريم . فكان يأتى الرجل من المسلمين فيضرب الطنفسة بالفأس ليقسمها مع شركائه فى المغنم .

وكان فى مدينة طليطلة حين فتحها طارق من الذخائر والأموال – غير المائدة العظيمة – مالا يحصى . . فمن ذلك مائة وسبعون تاجاً من خالص الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ، وألف سيف مما كان يستعمله الملوك والأشراف ، وقد رصعت مقابضها بنفيس الجواهر ، كما كللت أغمادها بأسلاك الذهب والفضة الملبسة باللآلئ . . وكانت الدرر واليواقيت تصادف الفاتحين بكثرة كأنها من الحصى لا من الجواهر ، وكانت أوانى الذهب والفضة شيئاً يفوق الوصف .

ذلك كله كان بعض المغانم من مدينة واحدة ، فما بالك بعشرات المدن ، ومئات القصور التى دخلها الفاتحون واستولوا على ما فيها من طريف ونفيس ؟ أما « المائدة العظيمة » فلها قصة لا بد من ذكرها هنا لأنها تكمل لنا ما حدث بين موسى بن نصير وطارق بن زياد ، ولأنها كانت مما استعمله طارق ليوغر به صدر الخليفة سليمان بن عبد الملك

على موسى بن نصير . . .

حين التقى موسى بطارق ذلك اللقاء الغليظ الخشن الذى أشرنا إليه طالبه موسى بالمائدة وألح عليه فى الطلب . فأتاه بها طارق ، وقد خلع من أرجلها رجلا واحدة وأخفاها عنده ، فسأله موسى :

– أين الرجل الرابعة يا طارق ؟

فأجاب طارق :

– لا علم لى بها ، وهكذا أصبتها يوم الفتح . .

فأمر موسى بأن تصنع لها رجل من الذهب ، ولكنها جاءت بعيدة الشبه عن بقية الأرجل الثلاث الأصلية ، ويظهر عليها أثر التعمل ورداءة الصنعة . وظلت المائدة هكذا ، حتى عاد موسى وطارق إلى دار الخلافة الأموية بدمشق وكان من مناقشتهما وحديثهما أمام الخليفة ما أثبت به طارق أن الرجل الرابعة الأصلية معه ، لأنها هى الدليل على أنه هو الذى غنم المائدة العظيمة ، لا موسى بن نصير . . .

نهاية البطل

١١

لقد كانت همة موسى بن نصير فى الفتح الأندلسى أبعد من أن تقف أمامها جبال البرانس التى تفصل بين فرنسة وأسبانية . لقد كان فى نيته أن يخترق هذه الجبال إلى ما وراءها من بلاد الفرنجة ، وأن يستمر فى طريقه إلى الشرق مخترقاً أوربة كلها من الغرب إلى الشرق حتى يبلغ القسطنطينية ، ومن هناك يستمر فى سيره حتى يعود ثانية إلى دار الخلافة بدمشق . . .

لله ما أبعد هذه الهمة ! وما أعلى هذه النفس التى تريد أن تخترق قارة بأكملها من الغرب إلى الشرق ، وتخوض ما بين الأندلس والقسطنطينية فى طريق لاحب طويل ، وبين أمم لا تدين بالإسلام ، لينشر فيها راية الدين ، وكلمة التوحيد، ثم يتجاوزها عائداً إلى الشام ليبشر الخليفة بفتح مبين . . .

إن موسى بن نصير قد نسى وهو فى نشوة الظفر والفتح العظيم أنه كتب إلى طارق يتوعده إن توغل فى البلاد بغير إذنه ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به! فهو الآن لا ينوى التوغل فى الأندلس وحسب

بعد أن دانت كلها ما عدا جيلقية[1] ولكنه ينوى التوغل فى أوروبا كلها ويجتازها من الغرب إلى الشرق مجاهداً فى سبيل الله . . .

وبينما هو بسبيله إلى جيلقية ليخضعها أولا ثم ينفذ منها إلى جبال البرانس للمضى فى تنفيذ نيته إذ جاء « مغيث » الرومى رسول الخليفة الوليد ومولاه ، يأمره بالرجوع ، لا عن جيلقية فحسب ، ولكن عن بلاد الأندلس كلها عائداً إلى الشام !

واستطاع موسى بدهائه أن يتلطف مع رسول الخليفة « مغيث » وأن يغريه ويقنعه بالبقاء معه زمناً يتقاسمان المغانم ! ونجح الإغراء مع مغيث وبقى مع ابن نصير وأنجزا بعض الفتوح ، وغنما كثيراً من الغنائم ، ووسعا نطاق الإسلام بأرض الأندلس، وبلغا حصن «بارو»، وحصن « لك » وجعلاه مركزاً لإرسال البعوث والسرايا .

ونسى « مغيث » المهمة التى أوفده الخليفة لها من استدعاء ابن نصير على عجل ! ونسى أنه موفد ليعيد موسى إلى الشام ويعود معه ، والخليفة هناك ينتظر عودتهما بفارغ الصبر !

وأرسل «الوليد» رسولا آخر من الشام اسمه «أبو نصر» بعد أن استبطأ موسى فى الرجوع . وأوصاه بأن يزعجه ويلح عليه حتى يرجع ، وحمل معه كتاباً إلى موسى يوبخه ويعنفه ويأمره بالخروج من الأندلس على الفور .

---

(١) هى مملكة فى أقصى الشمال الغربى من بلاد الأندلس .

واستعد موسى للعودة إطاعة لأمر الخليفة ، فركب البحر ومعه طارق والرسولان مغيث ، وأبو نصر وغيرهم ممن اختار الرجوع معهم . ولم يترك موسى بلاد الأندلس الجديدة الفتح بغير وال ولا قائد ولا أمير ، فاستخلف عليها ابنه عبد العزيز الذى كان أول أمير على الأندلس ، لأن موسى وطارقا لم يتخذا سريرا للإمارة ولا للسلطنة .

واتخذ الأمير عبد العزيز سرير الإمارة فى مدينة أشبيلية ، فكانت بذلك أول عاصمة إسلامية عربية فى ذلك الفردوس الجميل . . .

عاد موسى إلى الشام سنة ٩٥ هـ قاصدا الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وكان يجر وراءه الدنيا بما احتمله من غنائم الأندلس وأموالها وأمتعتها ونفائسها ، وكانت تحمل على العجلات أو على ظهور الرجال . ومعه فوق ذلك ثلاثون ألف رأس من السبايا ليقدمها إلى الوليد .

وكان سليمان بن عبد الملك أخا للخليفة الوليد ووليا للعهد من بعده ، فلما علم أن موسى بن نصير اجتاز مصر إلى فلسطين فى طريق عودته ، وأنه على مقربة من دمشق ، طمع فى أن يحتجز هذه الغنائم — التى بلغته أنباؤها — لنفسه ، وحرص على أن لا تقع فى يد أخيه الوليد الذى كان مريضاً فى ذلك الحين . فكتب سليمان إلى موسى بن نصير يأمره بالتمهل فى العودة ، والتربص قليلا ، على أمل أن يموت أخوه الخليفة الوليد قبل وصول موسى إلى دمشق ، وحينئذ يقدم موسى على سليمان — الخليفة الجديد المنتظر ! —

فى أول عهده بالخلافة ، بتلك الغنائم الكثيرة ، والسبايا الهائلة التى ما رؤى ولا سمع بمثلها فى التاريخ ، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس ، ويقولون إن الخير الكثير ، والمغنم الوفير جاء على عهده لا على عهد أخيه !

ولكن موسى بن نصير أبى ذلك ، ومنعه من فعله دينه ووفاؤه للوليد ، وجدّ فى السير عائدا حتى قدم على الوليد وهو حى لم تدركه المنية بعد ، فسلم إليه الأخماس والغنائم ، والتحف والذخائر التى ارتجت لها أركان الدولة الأموية ، واهتزت لها جنبات العالم الإسلامى . واستقبلت الشام موسى بن نصير استقبال الملوك الفاتحين ، ولو لم يكن على رأسه تاج ولا فى يده صولجان . . .

وشاء الله أن لا يمكث الخليفة الوليد طويلا بعد قدوم ابن نصير ، فتوفى بعد أن استخلف أخاه سليمان بن عبد الملك !

إن سليمان الآن خليفة يأمر وينهى ، ويملك ويحكم ، وهو لا ينسى أن ابن نصير أبى عليه التعجيل بالعودة إلى دمشق ، وفوّت بذلك عليه أموالا ومغانم كثيرة كان يرجوها لنفسه دون أخيه . . وأخذ الحقد ينمو فى نفس الخليفة سليمان على موسى بن نصير ، ونسى له جهاده فى سبيل الله ، ونسى له الفتوح والمغانم التى أضافها إلى دولة الإسلام . فأخذ يفتّن فى تعذيبه ، ويبالغ فى إهانته ، وبلغ من ذلك أنه أمر بإقامته فى الشمس الحارة اللافحة واقفاً حتى كاد يهلك ، واستصفى أمواله كلها ، وقضى عليه

بغرامات عظيمة لا قبل له باحتمالها ولا الوفاء بها .

واستشفع موسى بن نصير بيزيد بن المهلب لمكانته من سليمان بن عبد الملك ليرفع عنه العذاب ، وليخفف الحملة عليه ، فلم يقبل إلا أن يهب له دمه ، أما الغرامة فلا سبيل إلى الخلاص منها ، وأبت المروءة العربية إلا أن تتمثل فى يزيد بن المهلب، فافتدى موسى بمال كثير قدره بعض المؤرخين بمليون دينار . . .

وقد كان فى استطاعة موسى بن نصير أن يتفادى ذلك المصير الأليم كله بأن يبقى فى الأندلس فى موضعه من العزة والكرامة والجهاد ، فلا يجيب دعاء الوليد ، ولا يتعرض لتوبيخه وتعنيفه وتهديده على الإبطاء فى العودة ، كما لا يتعرض لأذية سليمان الذى كان موسى واثقاً أن الخلافة صائرة إليه عما قريب. ولكنه لم يفعل، ونتركه هنا يجيب عن هذا التساؤل بالحادثة التالية :

سهر يزيد بن المهلب ليلة عند موسى بن نصير وهو فى نكبته ، فقال له :

— يا أبا عبد الرحمن ! كم عدد مواليك وأهل بيتك ؟

— هم كثير !

— أيبلغون ألفا ؟

— ألفا ، وألفا ، وألفا إلى أن ينقطع النفس من العد !

— يا للعجب ! أنت وقومك على ما وصفت من العدد ، ثم ألقيت

بيدك إلى التهلكة ، وأسلمت نفسك إلى معذبك ؟ أفلا أقمت فى قرار عزك ، وموضع سلطانك ، وامتنعت بكل الغنائم والسبى الذى قدمت به ؟ فإن أعطيتَ الرضا ، وإلا كنت على عزك وسلطانك ؟

وبعد هذا الحوار كان جواب موسى بن نصير : —

— « والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافى طرفا ، ولكنى آثرت الله ورسوله ، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة »

* * *

لقد لقى موسى بن نصير من الجهاد فى سبيل الله كثيرا ، ولقى من العذاب فى نكبته مع الخليفة سليمان كثيرا . حتى لقد آلت حاله — حين طالبه سليمان بالغرامة — إلى أن كان يطاف به على أحياء العرب فى الحجاز ليسألهم من المال ما يفتكُّ به نفسه ، ويدفع به الغرم عنه . . . ولقد ذاق الحلو والمر ، ورأى من الحياة نعيمها وبؤسها ، فلم يتغير إيمانه ، ولا وهت نفسه ، لأنها نفس مؤمن يرى الجزع من غير صفات المؤمنين .

وبقى لموسى بن نصير بعض غلمانه ممن كان وفيا له فى الضراء ، كما كان معه فى السراء ، فروى لنا ختام ذلك البطل الفاتح العظيم قائلا :

« لقد كنا نطوف مع الأمير موسى بن نصير على أحياء العرب ، فواحد يحيينا ، وآخر يحتجب عنا ، ولربما دَفع إلينا — على جهة الرحمة — الدرهم والدرهمين ، فيفرح بذلك الأمير ، ليدفعه إلى الموكلين بحراسته ، فيخففوا

عنه من العذاب . ولقد كنا قبل ذلك – أيام الفتوح العظام بالأندلس – نأخذ الأسلاب من قصور ملوك القوط وأمرائهم ، فننزع منها ما يكون فيها من الذهب والفضة فنرمى به ، ولا نتشاغل بجمعه ، ولا نأخذ إلا الدر الفاخر ، والجوهر الثمين ، فسبحان الذى بيده العز والذل ، والغنى والفقر ...

* * *

لم يعش موسى بن نصير بعد عودته إلى الشام أكثر من عامين قضاهما فى عذاب شديد ، وتعرض فيهما لأذى الخليفة سليمان فى شخصه وفى أسرته ، حتى لقد دس من أهل الأندلس من قتل ابنه عبد العزيز الذى استخلفه هناك أميرا على الأندلس كما سبق القول .

وهناك فى « وادى القرى » بأرض الحجاز ، وفى سنة ٩٧ من الهجرة تنبأ موسى بن نصير بموته ، ونعى إلى الدنيا نفسه حين قال لبعض إخوانه قبل أن يموت بيوم واحد : « ليموتن بعد غد رجلٌ قد ملأ ذكره المشرق والمغرب » .

وما جاء « بعد غد » حتى نُعى إلى الإسلام والمسلمين بطل من أكبر الفاتحين ...

الفهرس

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧